

الفصل الثاني

شعر بني هاشم: دراسة موضوعية

أولاً- الفخر

ثانياً- المدح

ثالثاً- الرثاء

رابعاً- الهجاء

خامساً- الغزل والحب

سادساً- الحكمة

سابعاً- التبتل والدعاء

ثامناً- التهاني

تاسعاً- شعر الإعداد التربوي

الفصل الثاني

شعر بني هاشم: دراسة موضوعية

لقد أبدعَ بنو هاشم في مُعظم أغراض الشعر العربي. والذي تم جمعه في هذا الكتاب يدلُّ على تعدُّد الظواهر الموضوعية في أشعارهم، فلم يُفصِّروا إلا في الغزل الذي هو أوسعُ أغراض الشعر العربي، أمَّا المدحُ فقد اقتصر على مدح النبي صلى الله عليه وسلم، الذي هو أشرف الممدوحين، ماعدا أبياتاً قليلة في مدح الأنصار قيلت إحقاقاً للحق، بمناسبة ما قاله البعض من هجاءٍ فيهم. والأغراض الشعرية من الأمور التي تتفاوت فيها طباع الشعراء، وهو ما قرَّره ابن قتيبة قائلاً: "والشعراء - أيضاً - في الطبع مختلفون: منهم مَنْ يسهلُ عليه المديح ويعسرُ عليه الهجاء، ومنهم مَنْ يتيسرُ له المرثي ويتعذرُ عليه الغزل. وقيل للعجاج: إنك لا تُحسنُ الهجاء؟ فقال: إن لنا أحلاماً تمنعنا من أن نُظلم، وأحساباً تمنعنا من أن نُظلم، وهل رأيتَ بانيًا لا يُحسنُ أن يهدم؟"، وعلّق ابن قتيبة على كلام العجاج قائلاً: "وليس هذا كما ذكرَ العجاج، ولا المثلُ الذي صرَّبه للهجاء والمديح بشكل، لأنَّ المديح بناءٌ والهجاء بناءٌ، وليس كُلُّ بانٍ بضربٍ بانيًا بغيره. ونحن نجد هذا بعينه في أشعارهم كثيرًا، فهذا ذو الرمة أحسنُ الناسِ تشبيهاً وأجودهم تشبيهاً، وأوصفهم لرملةٍ وهاجرةٍ وفلاةٍ وماءٍ وفراةٍ وحياةٍ، فإذا صارَ إلى المديح والهجاء خانه الطبع، وذلك آخره عن الفحول... وكان الفرزدقُ زيرَ نساءٍ وصاحبَ غزل، وكان مع ذلك لا يُجيد التشبيب، وكان جريزٌ عفيفاً عزهاةً عن النساء، وهو مع ذلك أحسنُ الناسِ تشبيهاً..."⁽¹⁾.

ونقل ابن رشيقي قول بعض العلماء: "بني الشعرُ على أربعة أركان، وهي: المدح والهجاء والنسيب والرثاء. وقالوا: قواعد الشعر أربع: الرغبة، والرغبة، والطرب، والغضب: فمع الرغبة يكون المديح والشكر، ومع الرغبة يكون الاعتذار والاستعطاف، ومع الطرب يكون الشوق ورقة النسيب، ومع الغضب يكون الهجاء والتوعد والعتاب

(1) الشعر والشعراء لابن قتيبة، ج1- ص93 و94.

الموجع"⁽¹⁾، ونقل قول أحد النقاد: "أصعب الشعر الرثاء، لأنه لا يُعملُ رغبةً ولا رهبة"⁽²⁾.

والأغراض الشعرية متعددة ومتداخلة، ومتقاربة، ولذلك يرى أبو هلال العسكري "أنَّ الفخرَ هو مدْحُكَ نفسِكَ بالطهارة والعفاف والحلم والعلم والحسب، وما يجري مجرى ذلك، والمرثية مديح الميت، والفَرْقُ بينهما وبين المديح أن تقول: كان كذا وكذا، وتقول في المديح: هو كذا وأنتَ كذا"⁽³⁾.

لقد تعدّدت الأغراض الشعرية في أشعار بني هاشم مجتمعين، وإن كانت عند الشاعر الواحد ليست كذلك. وربما كان هذا بسبب ضياع الكثير وأن ما تم جمعه هو ما تبقى من أشعارهم في المصادر العربية. وإذا كان شعراء هذا الكتاب منهم شعراء جاهليون ومخضرمون وإسلاميون، فمن المتوقع وجود تطوُّر طرأ على المضمون الشعري بين الجاهلية والإسلام. وقد أفردتُ المباحث القادمة لدراسة الظواهر الموضوعية في أشعارهم، من خلال أشعارهم نفسها.

أولاً- الفخر

يُعدُّ الفخر أكبر الظواهر الموضوعية في الشعر الهاشمي، في الجاهلية وفي الإسلام، فهو أغزر الأغراض الشعرية مادّةً فيما وجدته من شعرهم. وقد تناولتُ الفخر في شعرهم من خلال التفريق بين الجاهليّ منه والإسلامي.

أ- الفخر قبل الإسلام:

لقد تعدّدت نواحي الفخر قبل الإسلام، فهناك عناصر أخلاقية، وهناك أعمالٌ وإنجازاتٌ حققها بنو هاشم بن عبد مناف، وهناك أصلهم الطاهر، حيث يرجع نسبهم إلى خليل الله إبراهيم عليه السلام، وهناك جوازهم لبيت الله وقيامهم على خدمته

(1) العمدة لابن رشيق، ج1- ص193 و194.

(2) السابق، ج1- ص198.

(3) كتاب الصناعتين للعسكري، ص121.

وخدمة حَجِيج البيت. لكنَّ الأمر لا يخلو من فخرٍ جاهليٍّ، في أحيان قليلة، حيث افتخر أبو لهب بنسبه من جهة أمّه إلى خُزاعة، بل رأى تأخّر الناس عن المفخر إذا لم يكن لهم نسبٌ إلى خُزاعة، حيث قال⁽¹⁾:

إِذَا الْقُرَشِيُّ لَمْ يَضْرِبْ بِعِرْقٍ خُزَاعِيٍّ فَلَيْسَ مِنَ الصَّمِيمِ
وَكَيْفَ يَكُونُ ذَا شَرَفٍ وَمَالٍ تَخَطَّتْهُ دَلَالَةُ الْقُرُومِ

وهو فخر جاهليٍّ، بل هو عكس ما يقوله المفتخرون من بني هاشم، حيث يفتخرون بالحسب (المحض) أي الخالص الذي لم يختلط به عِرْقٌ آخر، لكنَّ أبا لهب خرج على التقاليد الهاشمية في الفخر. وسواءً أكان قاله قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم أم بعدها، فإنه لا فرق في ذلك، فإنه لم يُسلم، ولم يُقلْ إلاً فخراً جاهليّاً.

أمّا أهم مادة للفخر عند بني هاشم، فقد كانت مكارم الأخلاق، حيث يتناثر الحديث عن مكارم الأخلاق في شعر الهاشميين، في المدح والثناء والفخر، لكنَّ بعض القطع الواردة لهم، اختصَّت بالحديث عن العفة، وهي مكرمة سامية لهم. وهذا عبدُ الله بن عبد المطلب، تعدّدت في شعره القطعُ الشعرية التي تتعلق بذلك، ومنها ما يُروى عنه أنه كان قد ذهب مع أبيه عبد المطلب إلى اليمن، فنزل بقصر من القصور، وذهب أبوه عبد المطلب في حاجة وتركه عند متاعه وسيفه عند رأسه، فنزلت كاهنةٌ يمامية، وفي يدها كيس من الورق، فوثبت عليه ثم قالت له: هل لك يا سيدي من فرحتين عاجلتين؟ قال: وما هما؟ قالت: تجمعي الساعة، وتأخذ هذه الدراهم، وأبدل لك مائة من الإبل محملة تمرًا وبسرًا وسمناً، فلما استتم كلامها قال: إليك عني، فما أقبح صورتك يا ويلك، أما علمتِ أنا قومٌ لا نرتكب الآثام؟ وتناول سيفاً كان إلى جواره، فانهزمت المرأة ورجعت خائبة، فأقبل أبوه فوجده وسيفه مسلول وهو يقول⁽²⁾:

أَنْرَتِكِبُ الْحَرَامَ بِغَيْرِ حِلٍّ وَنَحْنُ ذُوو الْمَكَارِمِ فِي الْأَنَامِ

(1) القطعة رقم (2) لأبي لهب، في قسم الجمع والتحقيق.

(2) القطعة رقم (3) من شعر عبد الله بن عبد المطلب.

إِذَا ذُكِرَ الْحَرَامُ فَتَنَحْنُ قَوْمٌ جَوَارِحُنَا تُصَانُ عَنِ الْحَرَامِ
مَعَاذَ اللَّهِ، إِنَّا مِنْ أَنْاسٍ أَمَا جِيدٍ جَحَاجِحَةٍ كِرَامِ

كما يُرَوَى عن عبد الله بن عبد المطلب، أنه مرَّ - وهو ذاهب إلى بيت زوجته آمنة بنت وهب - على امرأة ذات جمالٍ، دَعَتْهُ إِلَى نَفْسِهَا؛ لِمَا كَانَتْ تَرَى عَلَى وَجْهِهِ مِنَ النُّورِ، فَأَبَى وَقَالَ⁽¹⁾:

أَمَّا الْحَرَامُ فَالْمَمَاتُ دُونَهُ
وَالْحِلُّ لَا حِلَّ فَأَسْتَبِينَهُ
فَكَيْفَ بِالْأَمْرِ الَّذِي تَعْنِينَهُ
يَحْمِي الْكَرِيمُ عِرْضَهُ وَدِينَهُ

وهو في قطعة أخرى يحكي أنه دعتهُ امرأة جميلة إلى نفسها، مع أن بها مواصفات جمالية هي قِمَّةُ الجمال في ذلك الحين، ويحكي امتناعه عن هذا المَطْلَبِ المشين⁽²⁾:

وَأَحْوَرَ مَخْضُوبُ الْبَنَانِ مُحَجَّبٌ دَعَانِي فَلَمْ أَعْرِفْ إِلَى مَا دَعَا وَجْهَهَا
بَخِلْتُ بِنَفْسِي عَنْ مَقَامٍ يَشِينُهَا فَلَسْتُ مُرِيدًا ذَاكَ طَوْعًا وَلَا كَرْهًا

لقد كان عبدُ الله بن عبد المطلب يحفر في الأذهان مواقف العفة، ويؤسِّس لها شعريًا، بل إن ما قاله أخوه الأكبر الحارثُ بن عبد المطلب كان بعده، لأنَّ ما قاله الحارثُ كان قبل وفاته بشهر، وقد تُوفي بعد عام الفيل بعام. أمَّا عبدُ الله فقد توفي قبل عام الفيل بأشهر.

ويُروى عن الحارثِ خبير، هو أنه استأذن أحدُ ملوكِ حِمير، عبدَ المطلب، في أن يُنادِمَهُ ابنُهُ الحارثُ، فأذِنَ له. وكان الحميريُّ أجملَ ملوكِ حَمير، وكانت امرأته أجملَ منه، فكان إذا شرب مع الحارثِ خرجت زوجته فجلست معهما تسقيهما، فعشقت

⁽¹⁾ القطعة رقم (4) من شعر عبد الله بن عبد المطلب.

⁽²⁾ القطعة رقم (5) من شعر عبد الله بن عبد المطلب.

الحارثُ زوجةُ الملك، فراسلتهُ، فأعلمها أنه مُحصَنٌ عن الزَّنا، وأنه لا يخون نديمه،
فألحَّت عليه، فكتب هذه الأبيات إليها في العِقَّة(1):

لا تَطْمَعِي فيما لَدَيَّ؛ فَإِنِّي عَفٌّ مُنَادِمَتِي عَفِيفٌ مُزْرِي
أَسْعَى لِأُدْرِكَ مَجْدَ قَوْمِ شَادَهُ عَمَرُوا قَطِينُ الْبَيْتِ عِنْدَ الْمَشْعَرِ
فأفْنِي حَيَاءَكَ وَاغْلَمِي أَنِّي أَمْرُؤٌ أَبِي لِنَفْسِي أَنْ يُعَيَّرَ مَعْشَرِي
أَنِّي أَرْنُ بِجَارِي أَوْ كَنَّتِي أَوْ أَنْ يُقَالَ صَبَا بِعُرْسِ الْحَمِيرِي

فلقد ترك لنا بنو هاشم مجموعة من القطع الشعرية التي تقال في الفخر بالعِقة، وهم
الأَعْفُ رجالاً ونساءً، حتى كان الرسولُ صلى الله عليه وسلم ينتقلُ بين الأصلاب
الطاهرة والأرحام الطاهرة، إلى أن اختار الله له بني هاشم، الذين هم مشهورون بالعِقة.

وقد كانت الإنجازات الهاشمية مدعاةً للفخر بها، حيث حَفَرَ هاشمُ بنُ عبد مناف،
بئرَ بَدْر، وهي البئر التي عند حَظْمِ الحَنْدَمَةِ - جبل على فم شعب أبي طالب - وربما
تراجز الناسُ حولها، كما يتراجزون حول الآبار الأخرى، ولكن الذي يعيننا هنا هو أنَّ
هاشماً قال حين حفرها(2):

أَنْبَطْتُ بَدْرًا بِمَاءٍ قَلَّ
جَعَلْتُ مَاءَهَا بِلَاغًا لِلنَّاسِ

ولقد كانت أعمالُ هاشمٍ أَجَلَ بكثيرٍ من حفر بئر أو آبار، كما اتضح لدينا من
التمهيد، فمن المستبعد أن يكون ذلك مدعاةً فخره أو منَّه بهذا العمل، ولكنه يذكر
ذلك للذكرى، فقد استنبط هاشمُ هذه البئر بماء زَخَّار، وجعل ماءه وَاصِلًا للناس وكافيًا
لهم.

(1) القطعة رقم (2) من شعر الحارث بن عبد المطلب.

(2) القطعة رقم (2) من مجموع شعر هاشم، في هذا البحث.

وقد يتسبب التنافس أو بعض الأحداث الشخصية في الفخر، حيث افتخر الحارثُ ابنُ عبد المطلب، على خِداشِ بنِ عبد الله بن قيس، بأبائه وذكرَ فضلِ بني عبد مناف، وقد كان مشاركًا مع أبيه في حفر زمزم، فهو يُذكَرُ بها، قائلًا⁽¹⁾:

نَحْنُ حَفَرْنَا فِي أَبَاطِحِ مَكَّةِ حَفِيرًا لَطُولِ الدَّهْرِ عِنْدَ العَوَاقِبِ
نَسْقِي بِهَا الحَجِيجَ فِي كُلِّ ضَيْقَةٍ إِذَا عَطِشُوا يَنْزُونَ نَزْوِ الجَنَادِ
...
إِذَا فَرَعَ الحَيُّ التَّهَامُونَ أَرْفَضُوا إِلَيْنَا رِجَالًا بَيْنَ رَاضٍ وَعَاتِبِ

كما افتخر الحارثُ بنفسه، وبأخلاقه، وبشجاعته، وبنجدته، حيث قام بنجدة بني سعد، حين أغار عليهم رجلان من عجل وشيبان، ولم يكن في بني سعد - حينئذٍ - إلا النساءُ والصبيان، فقام الحارثُ ومن معه من قريش بنجدتهم، وقال مفتخرًا بالتصدي للمغيرين⁽²⁾:

أُبْلِغُ فُرَيْشًا إِذَا مَا جِئْتَ نَادِيَهَا أَنَّ الشَّجَاعَةَ مِنْهَا والنَّدَى خُلِقُ
لَوْلَا فَوَارِسُ مِنْ كَعْبِ ذَوُو شَرْفٍ يَوْمَ القُصَيْبَةِ لَمَّا احْمَرَّتِ الحَدَقُ
أَمَسَتْ نِسَاءَ بَنِي سَعْدٍ يُقَوِّدُهُمْ لَيْثٌ لِأَقْرَانِهِ فِي الحَرْبِ مُعْتَنِقُ
نَادَتْهُمْ يَوْمَ صَمُوا عَنْ مُنَاشِدَتِي صُمُّ القَنَا زَغَرَعَتْ أَطْرَافُهَا الحُرْقُ

ومن المنطقي أن يفخر المرءُ إذا اعتدى عليه مُعتدٍ وقام بالتصدي له، فمن حقّه أن يفخر عليه، كما فخر عبد الله بن عبد المطلب على من اعتدوا عليه وحده وكانوا جماعة، فقتل بعضهم، فانشغلوا عنه بقتلهم. فقد خرج بعضُ اليهود يُريدون قتله وقد

(1) القطعة رقم (1) من مجموع شعر الحارث بن عبد المطلب، في هذا البحث.

(2) القصيدة رقم (3) من شعر الحارث بن عبد المطلب، في هذا البحث.

ذهب للصيد، فلما أحاطوا به، وضع نبله في قوسه، فرماهم، فقتل واحداً منهم، ثم رماهم بأربع نبالٍ، فقتل أربعة، فانشغلوا عنه بقتلهم، وقال عبد الله مفتخرًا^(١):

وَلِي هِمَّةٌ تَعْلُو عَلَى كُلِّ هِمَّةٍ وَقَلْبٌ صَبُورٌ لَا يَمَلُّ مِنَ الْحَرْبِ
وَلِي نَبْلَةٌ أَرْمِي بِهَا كُلَّ ضَيْغَمٍ وَتَخْرِقُ فِي اللَّبَاتِ أَيْضًا فِي الْقَلْبِ
وَلَمَّا رَأَيْتُ الْقَوْمَ قَدْ جَدَّ سَيْرُهُمْ إِلَيَّ وَكُلُّ طَالِبٍ يَبْتَغِي قُرْبِي
نَشَرْتُ نِبَالًا ثُمَّ أَرْسَلْتُ بَعْضَهَا كَمَثَلِ لَمِيعِ الْبَرْقِ مِنْ خَلَلِ الشُّحْبِ
فَأَرْبَعَةٌ مِنْهَا أَصَابَتْ لِأَرْبَعٍ وَلَوْ كَاثُرُونِي صُلْتُ بِالطَّعْنِ وَالضَّرْبِ

وقد افتخر عبد الله بن عبد المطلب، بمكانة عائلته، وبأفضليتها على سادة الأرض، وبأمجاد أبيه وأجداده، وبطيب العرق وبالحسب المحض - أي الخالص الذي لا تشوبه شائبة - قائلاً^(٢):

لَقَدْ حَكَمَ السَّادَاتُ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ بِأَنَّ لَنَا فَضْلًا عَلَى سَادَةِ الْأَرْضِ
وَأَنَّ أَبِي ذُو الْمَجْدِ وَالسُّودِدِ الَّذِي يُشَارُ بِهِ مَا بَيْنَ نَشْرٍ إِلَى خَفْضِ
وَجَدِّي وَآبَاءُ لَهُ أَتَلُّوا الْعُلَا قَدِيمًا بِطَيْبِ الْعِرْقِ وَالْحَسَبِ
الْمَحْضِ

وكانت حربُ الفجار بين قيس وقريش، في الجاهلية، مدعاةً للفخر، فقد افتخرت عاتكة بنت عبد المطلب، بقومها في يوم عكاظ، ووصفتهم في هذه الحرب التي حضرها الرسول صلى الله عليه وسلم وكان عمره عشرين عامًا، فقالت عاتكة^(٣):

سَائِلٌ بِنَا فِي قَوْمِنَا وَلَيْكُفٍ مِنْ شَرِّ سَمَاعُةَ

(١) القطعة رقم (1) من شعر عبد الله بن عبد المطلب.

(٢) القطعة رقم (2) من شعر عبد الله بن عبد المطلب.

(٣) القطعة رقم (5) من شعر عاتكة بنت عبد المطلب.

قَيْسًا وَمَا جَمَعُوا لَنَا فِي مَجْمَعِ بَاقٍ شِنَاعُهُ
فِيهِ السَّنَوُورُ وَالْقَنَا وَالْكَبْشُ مُتَمِعًا قِنَاعُهُ
بُعْكَاطٌ يُعْشِي النَّاطِرِيَّ - ن - إِذَا هُمْ لَمَحُوا - شِعَاعُهُ

كما افتخرت دُرَّةُ بنتُ أبي لهب، بقومها في الحرب نفسها، فقالت^(١):
لَاقُوا غَدَاةَ الرَّوْعِ ضَمْرَزَةً فِيهَا السَّنَوُورُ مِنْ بَنِي فَهْرِ
مَلْمُومَةٌ خَرَسَاءٌ تَحْسِبُهَا لَمَّا بَدَتْ مَوْجًا مِنَ الْبَحْرِ
... ..
قَوْمٌ لَوْ أَنَّ الصَّخْرَ صَالَدَهُمْ صَلَبُوا ولأنَّ عَرَامِسُ الصَّخْرِ

وقد كان لتربية صفية بنت عبد المطلب ابنها الزبير على الشدة، أثر في نفسه، فقد كان يهزم من تُسَوَّل له نفسه مُباطشته، وقد مرَّ رجلٌ عليها، فسألها عن ابنها الزبير، فقالت: ماذا تريد؟ فقال: أريد مُباطشته ومصارعته. فقالت: ها هو ذاك. ثم مرَّ عليها وقد غلبه الزبير، فقالت له صفية مُفتخرةً بابنها وساخرةً من الرجل:

كَيْفَ رَأَيْتَ زَيْتَ رَا
أَقِطًا أَوْ تَمْرًا
أَمْ قُرْشِيًّا صَارِمًا هَزْبَرَا

كما كانت أعمال الآباء والأجداد وإنجازاتهم مدعاةً فخر في كثير من المواقف، وقد سبق فخر الحارث بن عبد المطلب، بحفر زمزم، وهذه صفية بنت عبد المطلب تفخر على ضرَّتها، بحفر بئر بدر التي حفرها هاشم بن عبد مناف، فقد كان بنو عبد الدار قد حفروا بئرًا اسمها أمُّ أحراد، فقالت أميمة بنت عميلة بن السباق بن عبد الدار، تفاخر ضرَّتها صفية بنت عبد المطلب:

نَحْنُ حَفَرْنَا الْبَحْرَ أَمْ أَحْرَادُ

(١) القطعة الوحيدة لدرة بنت أبي لهب، في قسم الجمع.

لَيْسَتْ كَبَدَّرَ النَّزُورِ الْجَمَادُ

فَأَجَابَتْهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمَطْلَبِ، قَائِلَةً⁽¹⁾:

نَحْنُ حَفْرُنَا بِالْأَنْزُرِ
بِجَانِبِ الْمُسْتَنْزُرِ
تَرْوِي الْحَجِيجَ الْأَكْبَرَ
مِنْ مُقْبِلٍ وَمُدْبِرِ

كما افتخرتُ صفيئةٌ بحفر أبيها زمزم، عند الكعبة، قائلة⁽²⁾:

نَحْنُ حَفْرُنَا لِلْحَجِيجِ زَمْزَمِ
شِفَاءِ سُقْمٍ وَطَعَامِ مُطْعَمِ
رَكْضَةِ جِبْرِيلَ وَلَمَّا تَعْظَمِ
سُقِيَا نَبِيِّ اللَّهِ فِي الْمُحَرَّمِ
ابْنِ خَلِيلِ رَيْنَا الْمُكْرَمِ

لقد اتخذ الفخر في الجاهلية مظاهر كثيرة، فهناك الفخر بالنسب الطاهر، وبالعبادة ومكارم الأخلاق والقيم المعروفة في الجاهلية، وبالإنجازات والأعمال، وبالآباء والأجداد وأعمالهم وأمجادهم، وبالقوة الحربية في المعارك، إلا من شذَّ على ذلك، مثل الفخر القبلي المعكوس الذي افتخره أبو لهب.

ب- الفخر في الإسلام

(1) الأرجوزة رقم (13) من شعر صفيئة بنت عبد المطلب. مع ملاحظة أن صفيئة لم يكن لها زوج منذ توفي زوجها العوام بن خويلد، في حرب الفجار، فلم تكن لها ضرة في الإسلام، مما يؤكد أن هذه القطعة من شعرها الجاهلي.

(2) القطعة رقم (20) من شعر صفيئة بنت عبد المطلب.

لقد اتخذ الفخرُ وجهةً أخرى في الإسلام، حيث صار المؤمنون يفخرون بانتسابهم للإسلام، ولنبي الإسلام، وبنصر الله للمؤمنين، وبهداية الله لهم، وغير ذلك من مظاهر الفخر التي سيأتي تفصيلها.

فهذا حمزةُ بن عبد المطلب يفتخِرُ بإسلامه وهدايته، وبآيات القرآن الكريم، بقوله^(١):

حَمِدْتُ اللَّهَ حِينَ هَدَى فُؤَادِي إِلَى الْإِسْلَامِ وَالِدَيْنِ الْخَنِيفِ
لِدِينٍ جَاءَ مِنْ رَبِّ عَزِيزٍ خَبِيرٍ بِالْعِبَادِ بِهِمْ لَطِيفِ
إِذَا تَلَيْتَ رَسُولَهُ عَلَيْنَا تَحَدَّرَ دَمْعُ ذِي اللَّبِّ الْخَصِيفِ
رَسَائِلُ جَاءَ أَحْمَدُ مِنْ هُدَاهَا بآيَاتِ مُبِينَاتِ الْحُرُوفِ

كما افتخَرَ حمزةُ بنصرَ الله للمؤمنين في بدر، فقال^(٢):

أَلَمْ تَرَ أَمْرًا كَانَ مِنْ عَجَبِ الدَّهْرِ وَلِخَنِينِ أَسْبَابِ مُبِينَةِ الْأَمْرِ
وَمَا ذَاكَ إِلَّا أَنَّ قَوْمًا أَفَادَهُمْ - فَحَانُوا - تَوَاصٍ بِالْعُقُوقِ وَبِالْكَفْرِ
عَشِيَّةَ رَاحُوا نَحْوَ بَدْرِ بِجَمْعِهِمْ فَكَانُوا زُهُونًا لِلرَّكِيَّةِ مِنْ بَدْرِ
وَكُنَّا طَلَبْنَا الْعِيرَ لَمْ نَبْغِ غَيْرَهَا فَسَارُوا إِلَيْنَا فَالْتَقَيْنَا عَلَى قَدْرِ
فَلَمَّا التَّقِينَا لَمْ تَكُنْ مَشْوِيَّةً لَنَا غَيْرُ طَعْنٍ بِالْمُثَقَّفَةِ السُّمْرِ
وَضَرَبَ بِيضٍ يَخْتَلِي الْهَامَ حَدُّهَا مُشَهَّرَةَ الْأَلْوَانِ بَيْنَةَ الْأَثْرِ

ولأوَّلَ مرَّةٍ يفخر شاعرٌ بجنود الله وإمداد الله لهم بالملائكة ليحاربوا الكفار، حيث

قال حمزة في القصيدة نفسها:

فَكَانُوا غَدَاةَ الْبَيْرِ أَلْفًا وَجَمْعُنَا ثَلَاثُ مِئِينَ كَالْمَسَدِمَةِ الزُّهْرِ
وَفِينَا جُنُودُ اللَّهِ حِينَ يُمِدُّنَا بِهِمْ فِي مَقَامٍ نَمَّ مُسْتَوْضِحِ الدُّكْرِ
فَشَدَّ بِهِمْ جَبْرِيْلُ تَحْتَ لِيْوَائِنَا لَدَى مَازِقٍ فِيهِ مَنَائِمُهُمْ تَجْرِي

(١) القصيدة رقم (8) من مجموع شعر حمزة بن عبد المطلب.

(٢) القصيدة رقم (7) من شعر حمزة بن عبد المطلب.

لقد كان حمزة بن عبد المطلب، على قمة القوة الحربية للمسلمين، يستمد تعليماته من الرسول صلى الله عليه وسلم، ويدير المعارك ضد الكفار، وكان منقطعاً للعمل الحربي، وهو يفخر بأنه لا يملك من حطام الدنيا غير فرسه وسيفه والخصال المحمودة للمحاربين، وأن هذا هو ما ستركه بعد مماته، قائلاً⁽¹⁾:

لَيْسَ عِنْدِي إِلَّا سِلَاحٌ وَوَرْدٌ
أَتَّقِي دُونَهُ الْخُرُوبَ بِنَفْسِي
جُرْشُعٌ مَا أَصَابَتِ الْحَرْبُ مِنْهُ
وَطَرِيرٌ، كَأَنَّهُ قَرْنٌ ثَوْرٌ
فَإِذَا مَا هَلَكْتُ كَانَ تُرَاثِي
فَارِحٌ مِنْ بَنَاتِ ذِي الْعُقَالِ
وَهُوَ دُونِي يَغْشَى صُدُورَ الْعَوَالِي
حِينَ تَحْمَى أَبْطَالُهَا لَا يُبَالِي
ذَاكَ لَا غَيْرَ ذَاكُمْ جُلٌّ مَالِي
وَسِجَالًا مَحْمُودَةً مِنْ سِجَالِي

وقد افتخر جعفر بن أبي طالب، بنفسه وبانتسابه إلى سادات فهر، وسيفه الغمام، وهو يضرب به في مؤتة، قائلاً⁽²⁾:

قَدْ عَلِمْتُ فَهْرٌ وَفَهْرٌ حَاكِمَةٌ
أَنْبِي مِنْهَا فِي الدُّرَا وَالْغُلْصَمَةٌ
كَمْ قَطَّ مِنْ شَاكِلَةٍ وَجُمُجُمَةٌ

ولصيفة بنت عبد المطلب، في الإسلام، فخرٌ بتقاليد جاهلية، لكنه كان مقصوداً به التحريض لضرب المشركين بعضهم بعض. فبعد أن انقضى يوم بدر وأصيب من المشركين من أصيب، قتل هشام بن الوليد بن المغيرة أبا أزيهر الدوسي بذي المجاز، فاجتمع الناس وتهيئوا للقتال، فجاء أبو سفيان بن حرب فقال: ما أسرع الناس إلى دماء هذا الحي من قريش! وقال لأصحابه: لا تشاغلوا بالحرب بينكم عن حرب محمد، يريد النبي صلى الله عليه وسلم. وكان العرب إذا غدر الرجل أوقدوا له ناراً على الجبل

(1) القطعة رقم (11) من شعر حمزة بن عبد المطلب.

(2) القطعة رقم (10) من شعر جعفر بن أبي طالب.

المُطَلِّ على مَنِي، وقيل هذه غَدْرَةُ فلان، فلما قُتِلَ أبو أزيهر - وهو صِهْرُ أبي سفيان فلم يأخذ بثأره - أوقدت النارُ على أبي قُبَيْسٍ بموسم الحج، وقيل هذه غَدْرَةُ أبي سفيان. وقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت: "حَرَضُ أبا سفيان في دَمِ ابْنِ أزيهر"، وإنما أراد صلى الله عليه وسلم أن يهزّه الشَّعْرُ على عادة العرب؛ فيتشاكل عن حربه بحرب بني مخزوم، ويقع الخلافُ بينهم، فقال حسانُ بنُ ثابتٍ قطعتين؛ يُعَيِّرُ فيهما أبا سفيان⁽¹⁾. وقالت صفيَةُ بنتُ عبد المطلب - أيضاً - تُحَرِّضُ أبا سفيان على أخذِ ثأرِ أبي أزيهر، مِنْ بني مخزوم، وتُعَرِّضُ له بالنار التي أوقدت له بالغَدْرِ⁽²⁾:

ألا مَنْ مُبْلِغٌ عَنِّي فُرَيْشًا ففِيمَ الأَمْرِ فِينا وإِمَارُ
لنا السَّلَفُ المُقَدَّمُ قَدْ عَلِمْتُمْ وَلَمْ تُوقِدْ لَنَا بِالغَدْرِ نَارُ
وَكُلُّ مَنَاقِبِ الخَيْرَاتِ فِينا وَبَعْضُ الأَمْرِ مُنْقَصَةٌ وَعَارُ
وسَائِلُ فِي جُمُوعِ بَنِي عَلِيٍّ إِذَا كَثُرَ التَّنَاشُدُ وَالْفَخَارُ
فإِنَّا لا نُقَرُّ الضَّيْمَ فِينا وَنَحْنُ لِمَنْ تَوَسَّمَنَا نُضَارُ

ولأنَّ أبا سفيان بن الحارث تأخَّرَ إسلامه، إلى قبيل فتح مكة، فقد كان يفخرُ على المسلمين قبل إسلامه، فقال في الافتخار بتخويف المسلمين في غزوة الأحزاب (الخنديق)، ورَمَى السَّهَامَ والرِّمَاحَ على المسلمين، حتى جَرِحَ سعدُ بنُ مُعَاذٍ، فقال أبو سفيان⁽³⁾:

نَحْنُ وَرَدْنَا بَطْنَ سَلْعٍ عَلَيْكُمْ بِأَسْيَافِنَا وَالخَيْلُ تَدْمَى نُحُورَهَا
تَرَكْنَا بَنِي النَّجَّارِ تَعْوِي كِلَابُهُمْ غَدَاةَ تَوَلَّتْ وَاسْتَمَرَ مَرِيْرَهَا
وَنَحْنُ تَرَكْنَا الخَزْرَجِيَّ مُجَدِّلاً تَمُجُّ حَيَاةَ النَّفْسِ مِنْهُ زَفِيرَهَا
تَرَكْنَاهُ لَمَّا غَادَرْتَهُ رِمَاحُنَا وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ غَيْرُ عَيْنٍ يُدِيرَهَا

(1) هما قطعان برقمي (192 و200) من ديوان حسان ط. وليد عرفات ج1- ص362 و372.

(2) القصيدة رقم (15) من شعر صفية بنت عبد المطلب، حيث ذكرت مناسبة القصيدة.

(3) القصيدة رقم (7) من مجموع شعر أبي سفيان بن الحارث.

ولأبي سفيان أبياتٌ في الفخرِ على قريش، بأنه وذويه أجودُ حصانًا، وأكثرهم دروعًا، وأكثر مهارة في القتال، وأفصحهم. ولم تفصح الرواية عن وقت أو مناسبة هذه الأبيات، إلا أننا نرجح أنه قالها بعد إسلامه، حيث لا يُمكن تصوُّر أنه كان يفخر عليهم وهو معهم قبل إسلامه، يقول(١):

لَقَدْ عَلِمْتُ قُرَيْشٌ غَيْرَ فَخْرٍ بَأْتًا نَحْنُ أَجْوَدُهُمْ حِصَانًا
وَأَكْثَرُهُمْ دُرُوعًا سَابِغَاتٍ وَأَمْصَاهُمْ إِذَا طَعَنُوا سِنَانًا
وَأَدْفَعُهُمْ عَنِ الصَّرَاءِ مِنْهُمْ وَأَبِينُهُمْ إِذَا نَطَقُوا لِسَانًا

ولمَّا أسلم أبو سفيان بنُ الحارث، اندرج في صفوف المسلمين، بل كان في طليعة المتصدِّين للدفاع عن النبي صلى الله عليه وسلم، وكان أحد القليلين الذين ثبتوا أمام النبي صلى الله عليه وسلم في حنين، حين انكشف عنه الناس. وقال أبو سفيان بن الحارث، في يوم حنين، مفتخرًا بشاته أمام النبي صلى الله عليه وسلم، فيمن ثبتَ من أهل بيته(٢):

لَقَدْ عَلِمْتُ أَفْئَاءَ كَعْبٍ وَعَامِرٍ غَدَاةَ حُنَيْنٍ حِينَ عَمَّ التَّضَعُّعُ
بِأَنِّي أَخُو الْهَيْجَاءِ أَرْكَبُ حَدَّهَا أَمَامَ رَسُولِ اللَّهِ لَا أَتَتَعَّعُ
رَجَاءَ ثَوَابِ اللَّهِ وَاللَّهِ وَاسِعٌ إِلَيْهِ تَعَالَى كُلُّ أَمْرٍ سَيَرَجُعُ

ومن فخره- أيضًا- بشاته في حنين، قوله(٣):

إِنَّ ابْنَ عَمِّ الْمَرْءِ مِنْ أَعْمَامِهِ
بُنُو أَبِيهِ الْيَوْمَ مِنْ أَمَامِهِ
وَمِنْ حَوَالِيهِ وَمِنْ أَهْضَامِهِ

(١) القطعة رقم (18) من مجموع شعر أبي سفيان بن الحارث.

(٢) القطعة رقم (9) من مجموع شعر أبي سفيان بن الحارث.

(٣) القطعة رقم (17) من مجموع شعر أبي سفيان بن الحارث.

فِيَنَّ هَذَا الْيَوْمَ مِنْ أَيَّامِهِ
فَقَاتَلَ الْمُسْلِمَ عَنْ إِسْلَامِهِ
وَقَاتَلَ الْحَرَمِيَّ عَنْ إِحْرَامِهِ

وقد ثبتَ العباسُ بنُ عبدِ المطلبِ - أيضًا - في حنين، وافتخرَ بشاته في أعنفِ
المواقفِ، حيثَ كانَ يَرُدُّ الخيلَ المغيرةَ بقوسه، وذلك في قصيدة يقول فيها:

أَلَا هَلْ أَتَى عِرْسِي مَكْرِيٍّ وَمَوْقِفِي بِوَادِي حُنَيْنٍ وَالْأَسِنَّةُ تُشْرَعُ
وَقَوْلِي إِذَا مَا النَّفْسُ جَاشَتْ، لَهَا: قِرِي وَهَامٌ تُدْهَدِي وَالسَّوَاعِدُ تُقَطَّعُ
وَكَيْفَ رَدَدْتُ الْخَيْلَ وَهِيَ مُغِيرَةٌ بِرُزْرَاءَ تُعْطِي بِالْيَدَيْنِ وَتَمْنَعُ

ويقول فيها:

نَصَرْنَا رَسُولَ اللَّهِ فِي الْحَرْبِ تِسْعَةً وَقَدْ فَرَّ مَنْ قَدَّ فَرَّ عَنْهُ فَأَقْشَعُوا

... ..

... ..

وَعَاشِرُنَا لَأَقَى الْحِمَامَ بِنَفْسِهِ بِمَا مَسَّهُ فِي اللَّهِ، لَا يَتَوَجَّعُ

وكانَ عُمرُ بنُ الخطابِ قد استسقى بالعباسِ عمَّ النبي صلى الله عليه وسلم، في عام
الرمادة، فسقَى المسلمون، وقال العباسُ بنُ عتبة بنِ أبي لهب، يذكر ذلك مفتخرًا، كما
افتخرَ بميراثِ بني هاشمِ بركاتِ النبي صلى الله عليه وسلم⁽¹⁾:

بِعَمِّي سَقَى اللَّهُ الْحِجَارَ وَأَهْلَهُ عَشِيَّةً يَسْتَسْقِي بِشَيْبَتِهِ عُمَرَ
تَوَجَّهَ بِالْعَبَّاسِ فِي الْجَدْبِ رَاغِبًا إِلَيْهِ، فَمَا إِنَّ رَامَ حَتَّى أَتَى الْمَطْرَ
وَمِنَّا رَسُولُ اللَّهِ، فِينَا تُرَاثُهُ فَهَلْ فَوْقَ هَذَا لِلْمُفَاخِرِ مُفْتَخِرُ

(1) القطعة الوحيدة للعباس بن عتبة بن أبي لهب، في قسم الجمع من هذا الكتاب.

وقد دخل الفضلُ بنُ العباسِ مصرَ، في أثناء فتحها، وحارب في فتح البهنسا، وبعد حصار للمدينة دَامَ ثلاث سنوات والحيلولة دون الدخول، فقال الفضلُ بنُ العباس وهو يدخل⁽¹⁾:

ألا إنا الساداتُ من آلِ هاشمٍ لِيُوثًا ذوي بطشٍ شديدِ العزائمِ
لنا تشهدُ الأبطالُ في كُلِّ معرِكٍ وتذكرُ عنَّا أهلُ كلِّ المَواسِمِ
إذا اشتدَّتِ الأهوالُ واستَبَقَ القنا رأيتَ لنا في ذاكِ فِعْلَ الصِّراعِمِ
فكان الفخرُ في شعرِ الحربِ مُوجِعًا، وكان هذا الشعرُ المصاحبُ للحربِ مُعِينًا لتعبئة الجنود، حيث كانت المهام صعبة، وكان لابد من اتخاذ شعر الفخر وسيلةً لتهيئة النفس لملاقاة الأهوال.

وهكذا يتبين أن كثيرًا من الفخر الإسلامي كان له وظيفة، بل وظائف، فقد كان في الحرب لإخافة الخصم، أو لتهيئة النفس للقاء الأهوال والشدائد. كما ظهر الفخر التحريضي، ليهتز له العدو لفعل شيء يتمنى الشاعرُ فعله، كما كان لتسجيل مبادئ جديدة وإرسائها، مثل الذي قام به حمزة بن عبد المطلب من توجيه الفخر وجهة إسلامية، للفخر بالدين الحنيف، وآيات الله التي تُبكي المؤمنين من الخشية، وبملائكة الله الذين يُعينون المؤمنين على النُّصرة.

ثانيًا- المدح

لأن بني هاشم من الممدوحين، لا نجد لهم مدحًا لأحدٍ من غير بني هاشم، فالمدح المجموع في هذه الرسالة لا يزيد على مدح النبي صلى الله عليه وسلم، إلا قليلاً، فلنفرغ من هذا القليل أولاً لنتقل إلى مدح المصطفى صلى الله عليه وسلم، قبل النبوة وبعدها.

(1) القطعة رقم (8) من مجموع شعر الفضل بن العباس بن عبد المطلب.

أ- مدح الأنصار:

كان عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ فِي يَوْمِ السَّقِيْفَةِ قَدْ خَطَبَ خُطْبَةً هَجَا فِيهَا الْأَنْصَارَ، فَرَدَّ عَلَيْهِ
الْفَضْلُ بْنُ الْعَبَّاسِ، يَمْدَحُ الْأَنْصَارَ، قَائِلًا^(١):

إِنَّمَا الْأَنْصَارُ سَيْفٌ قَاطِعٌ مَنْ تُصِبُهُ ظُبَةُ السَّيْفِ هَلَكُ
وَسُيُوفٌ قَاطِعٌ مَضْرِبُهَا وَسِهَامُ اللَّهِ فِي يَوْمِ الْحَلَكِ
نَصَرُوا الدِّينَ وَأَوْوَأَ أَهْلَهُ مَنْزِلٌ رَحْبٌ وَرِزْقٌ مُشْتَرِكٌ
وَإِذَا الْحَرْبُ تَلَطَّتْ نَارُهَا بَرَكُوا فِيهَا إِذَا الْمَوْتُ بَرَكَ

ولاشك أنه مديحٌ مُنْصِفٌ لِلْأَنْصَارِ، بَلْ إِنَّ الْأَبْيَاتَ تُشِيرُ وَتُلَخِّصُ مَوَاقِفَهُمْ مَعَ رَسُولِ
اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَعَ الْمُهَاجِرِينَ، وَتَذَكُرُ نُصْرَتَهُمْ لِلدِّينِ.

ب- مدح النبي صلى الله عليه وسلم:

لم يبدأ مدحُ النبي صلى الله عليه وسلم بعد بعثته وتصديق المؤمنين له، فإن بعض
النصوص التي ضمَّها هذا الكتاب تتضمَّن مدحًا له قبل البعثة، حيث كانت دلائلُ نبوته
تتوالى وبركاته يتناقلها من يعرفه، وكانت شمائله وحُسنه وطباعه مثار إعجاب أهله،
فمنهم من مدَّحه قبل النبوة ومنهم من مدَّحه بعدها، ومنهم من مدَّحه قبل النبوة واستمرَّ
مديحه له بعدها.

1- مدح النبي صلى الله عليه وسلم قبل النبوة:

كانت بركاتُ النبي صلى الله عليه وسلم تتوالى، منذ كان في ظهور آبائه، حتى ولدته
أمه آمنة بنتُ وَهَبٍ، وظهرت أنوارُه. وقد أخذته حليلة السعدية لإرضاعه، ورأت بركاته
كما هو معلوم. وكلها أحداثٌ مذكورة في كثير من الأشعار، ولكنَّ أشعار الهاشميين -
التي هي محل دراستنا- ورد فيها كثير من المدح له صلى الله عليه وسلم، ومنه ما قيل
قبل بعثته، بل منذ كان غلامًا في السابعة، حين حمله جدُّه عبدُ المطلب (واسمه شيبه

(١) انظر القطعة رقم (6) من مجموع شعر الفضل بن العباس بن عبد المطلب.

الحمد) على عاتقه وخرج مع رجال قريش ليستسقي به، فسقي، وهو ما قصته رقيقة بنت أبي صيفي في خبرها وذكرته في شعرها، ومدحت النبي الذي بشرت به مضر، والذي سئفوا به، حيث قالت (1):

بَشِيَّةِ الْحَمْدِ أَسْقَى اللَّهُ بَلَدَتَنَا وَقَدْ فَقَدْنَا الْحَيَا وَاجْلَوذَ الْمَطَرِ
فَجَادَ بِالْمَاءِ جَوْنِي لَه سَبَلٌ دَانَ فَعَاشَتْ بِهِ الْأَنْعَامُ وَالشَّجَرُ
مَنَّا مِنَ اللَّهِ بِالْمَيْمُونِ طَائِرُهُ وَخَيْرٍ مَن بَشَّرَتْ يَوْمًا بِهِ مُضَرَ
مُبَارَكِ الْأَمْرِ يُسْتَسْقَى الْغَمَامُ بِهِ مَا فِي الْأَنَامِ لَهُ عِدْلٌ وَلَا خَطَرُ
وحين خرج الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الشام متاجرًا بأموال خديجة قبل البعثة، بل قبل زواجه منها، خرج معه بعض أعمامه: الزبير والعباس وحمزة، وفي هذا السفر مدحه العباس وحمزة. فهذا عمه حمزة يمدحه صلى الله عليه وسلم، ذاكراً سفره إلى الشام، بأموال السيدة خديجة وما حدث في هذه السفارة من كرامات، وذاكراً بعض ما حلَّ بحليمة من بركاته صلى الله عليه وسلم (2):

أَنْتَ الْمُظَلَّلُ بِالْغَمَامِ وَقَدْ رَأَى الـ
رُيِّتَ فِي بُجُوحِ مَكَّةَ بَعْدَ مَا
رُهْبَانَ أَنْكَ ذَاكَ وَانْكَشَفَ الْخَبَرَ
وَضَعَ الْخَلِيلُ، وَفَاقَ فَخْرُكَ مَنْ فَخَرَ
وَرَضَعَتْ فِي سَعْدٍ لَثْدِي حَلِيمَةَ
كَرَمًا، فِفَاضَ الثَّدْيِ نَحْوِكَ وَانْحَدَرَ

وقد اختلف القرشيون في تأمير النبي صلى الله عليه وسلم، عليهم في سفرهم إلى الشام، مع أنه معروف لديهم بأنه النبي المنتظر، فذكر حمزة اختلافهم وما ظهر للقرشيين من بركاته صلى الله عليه وسلم، وما حدث لبعضهم من سوء؛ لعدم اتباعهم إرشاداته، كما ذكر مكانته عند الله قائلاً (3):

يَا حَاسِدِينَ تَمَزَّقُوا فِي غَيْظِكُمْ حَسَدًا يُمَزِّقُ مِنْكُمْ الْأَكْبَادَا

(1) القطعة رقم (2) من مجموع شعر رقيقة بنت أبي صيفي.

(2) القطعة رقم (5) من مجموع شعر حمزة بن عبد المطلب.

(3) القطعة رقم (3) من مجموع شعر حمزة.

فَاللَّهُ فَضَّلَ أَحْمَدًا وَاخْتَارَهُ وَبِمَكَّةَ جَمَعَ الْوَرَى وَبِلَادًا
وَلِيْمَلَانَّ الْأَرْضَ مِنْ إِيْمَانِهِ وَلِيَهْدِيْنَ عَنِ الْعَوَى مَنْ حَادَا

لقد أبى أبو جهل تأمير النبي صلى الله عليه وسلم، وعابه بأنه يتيم، فردَّ عليه العباسُ
قائلًا⁽¹⁾:

أَلَا أَيُّهَا الْوَعْدُ الَّذِي رَامَ ثَلْبَنَا أَتَثَلِبُ قَرَمًا فِي الرَّجَالِ كَرِيمَا
أَتَثَلِبُ- يَا وَيْلَكَ- الْكَرِيمَ أَخَا الثُّقَى حَبِيْبًا لِرَبِّ الْعَالَمِيْنَ عَظِيْمَا
وبعد رجوعهم من الشام، وتنفيذًا لاختيار الله لنبيه صلى الله عليه وسلم، كان الزواج
من خديجة بنت خويلد، وقد كانت بينهم مصاهرات من قبل، فقد كانت خالدة بنت
هاشم زوجًا لأسد بن عبد العزى جدَّ خديجة وإن لم تكن خالدة جدتها⁽²⁾. كما كان
العوامُ بن خويلد- أخو خديجة- زوجًا لصفية بنت عبد المطلب، وقُتِلَ العوامُ في حرب
الفجار، قبل زواج النبي صلى الله عليه وسلم من خديجة بخمسة أعوام، فخديجة أختُ
زوج صفية، وقد قامت صفية بدور في هذا الزواج المبارك، بل قالت لخديجة في
خطبتها، تمدح النبي صلى الله عليه وسلم، وتذكر محاسنه وجماله⁽³⁾:

اللَّهُ أَكْبَرُ كُلِّ الْحُسْنِ فِي الْعَرَبِ كَمْ تَحْتَ غُرَّةِ هَذَا الْبَدْرِ مِنْ عَجَبِ
قَوَامُهُ ثُمَّ إِنْ مَالَتْ ذَوَائِبُهُ مِنْ خَلْفِهِ فَهِيَ تُغْنِيهِ عَنِ الْأَدَبِ
تَبَّتْ يَدَا لِأَيْمِي فِيهِ وَحَاسِدِهِ وَلَيْسَ لِي فِي سِوَاهُ قَطُّ مِنْ أَرْبِ

لقد ابتهجت الدنيا بهذا الزواج المبارك، فقد كانت دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم
قد انتشرت في الأقطار، فصار أهل بيته يُصلُّون ويُسلِّمون عليه، صلى الله عليه وسلم،
قبل البعثة، لأنه النبي المنتظر، فقال العباسُ بن عبد المطلب، في هذا الزواج⁽⁴⁾:

⁽¹⁾ القطعة رقم (17) من مجموع شعر العباس بن عبد المطلب.

⁽²⁾ لأسد بن عبد العزى زوجتان: خالدة بنت هاشم وهي جدة ورقة بن نوفل، والثانية زهرة بنت عمرو الكاهلية، وهي جدة خديجة.

⁽³⁾ القطعة رقم (3) من مجموع شعر صفية بنت عبد المطلب.

⁽⁴⁾ القصيدة رقم (1) من مجموع شعر العباس.

قَدْ فَخَرْتُمْ بِأَحْمَدٍ زَيْنَ كُلِّ الْأَطْيَابِ
 فَهُوَ كَالْبَدْرِ نُورُهُ طَالِعٌ غَيْرُ غَائِبِ
 قَدْ ظَفِرَتْ خَدِيدَجَةٌ بِجَلِيلِ الْمَوَاهِبِ
 بِفَتَى هَاشِمِ الَّذِي مَا لَهُ مِنْ مُنَاسِبِ
 جَمَعَ اللَّهُ شَمْلَكُمْ فَهُوَ رَبُّ الْمَطَالِبِ
 أَحْمَدُ سَيِّدُ الْوَرَى خَيْرُ مَاشٍ وَرَاكِبِ
 فَعَلَيْهِ الصَّلَاةُ مَا سَارَ عَيْسٌ بِرَاكِبِ

وقد شاركت فاطمة بنت أسد بن هاشم، مع عمّاته في زفاف خديجة إليه صلى الله عليه وسلم، فكانت البشرية بنبوته حديث فاطمة، حيث تقول⁽¹⁾:

لَقَدْ عَلَوَتْ خَدِيدَجٌ فِي ذُرَا شَرْفٍ حَتَّى ارْتَقَيْتِ مِنَ الْعَلِيَا مَرَاقِيهَا
 بِالسَّيِّدِ الطَّاهِرِ الْمَبْعُوثِ فِي صُحُفِ الرَّهْبَانِ، لَا شَكَّ، وَالْأَنْبَاءُ تُنْبِيهَا
 وقد مدحته في هذا الزفاف عمّاته: أميمة، وبرّة، والبيضاء أم حكيم، وصفية، وعاتكة،
 مما سيأتي ذكره في المبحث المخصص للتهاني.

لكنّ عمّته عاتكة تعترف بالعجز عن مدحه، بل بعجز كلّ لسان، وهي في زفاف
 السيدة خديجة إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فجعلت تُنشدُ قائلة⁽²⁾:

أَضْحَى الْفُخَارُ لَنَا وَعِزُّ شَامِخٍ وَلَقَدْ فَخَرْنَا بِالنَّبِيِّ الْعَدْنَانِي
 نَلَّتِ الْعُلَا فِينَا وَتَعَلُّو فِي الْوَرَى وَتَقَاصَرَتْ عَن مَجْدِكَ الثَّقَلَانِ
 أَعْنِي مُحَمَّدًا الَّذِي لَا مِثْلَهُ وَلَدَ النَّسَاءِ فِي سَائِرِ الْأَزْمَانِ
 فَلَهُ الْمَكَارِمُ وَالْمَفَاخِرُ وَالْعُلَا عَن مَدْحِهِ قَدْ كَلَّ كُلُّ لِسَانِ

(1) القطعة رقم (3) من مجموع شعر فاطمة بنت أسد.

(2) القطعة رقم (8) من مجموع شعر عاتكة، في هذا الكتاب.

ففي عَجْز البيت الأخير عَبَّرَتْ عن المدح بطريقة العجز عن المدح، وهي طريقة المدح، حيث قال بعضهم: "إذا اعترف المادِحُ بالعَجْز عن الثناء فقد أتى بالمدح"⁽¹⁾.

2- مدح النبي صلى الله عليه وسلم بعد النبوة:

لا يستطيع أحد أن يُؤفِّي الرسول حَقَّهُ من الوصف، أو يُخصِّي محاسنه، فسيظل أحسن من المحاسن، وأجمل من الجمال، وأكمل من الكمالات، وأسمى من تصورات البشر. لكنَّ الصحابة الكرام أسَّسُوا لفنَّ المديح النبوي، وكان بعضهم يحاول أن يمدحه بالتقاليد الشعرية القديمة، فمدحهُ بعضهم بالكرم والجود والسيادة والشجاعة، في حين أنَّ كل هذه الصفات تَقْصُرُ عنه صلى الله عليه وسلم. وقد تناول د. أحمد النجار المديح النبويَّ للصحابة، فلاحظَ وجود بعض أساليب المديح المطروقة من قبل، عند أبي طالب، وكعب بن مالك، وقيس بن بحر، وحسان بن ثابت، فهُم "لا يزالون يُجْرُونَ صفاتٍ تقليدية في مديح السادة والأشراف من قبل، لذا مدحوا الرسول بكرم العُنْصُر وطيب الأصل وأصالة العِرْق في الحسب الكريم"⁽²⁾، كما لاحظَ أنهم مدحوه بأنه خيرُ الناس وأفضلُ مَنْ سَعَى على قدم، وخير مَنْ وَطِئَ التراب، إلى غير ذلك، لكنَّ الشعراء كانوا من قبل يستخدمون هذه الألفاظ نفاقاً أو تملُّقاً، أمَّا في حالة مدح النبي صلى الله عليه وسلم، فإنهم "يعتقدون حقاً أنَّ مدائحهم بتلك الصفات تعبيرٌ عن واقع ثابت تؤيده حقيقة الاعتقاد بأنه نبيُّ الله ورسوله ومصطفاه، وأنه أشرف الخلق وسيد المرسلين"⁽³⁾. ووصفوه بأنه الشهاب والبدر، اعترافاً منهم بفضل هدايتهم إلى طريق الرشاد وإخراجهم من الظلمات إلى النور⁽⁴⁾.

(1) المقصد الأسنى، للدبريني، ص134.

(2) مضمون المدحة النبوية زمن البعثة د. أحمد النجار ص183.

(3) السابق ص183 و184.

(4) السابق ص181.

وَمَدَحَهُ أَهْلُ بَيْتِهِ بِجَوَامِعِ الصِّفَاتِ، وَلَكِنَّ أَهْمَ مَا يُمَيِّزُ مَدِيحَ أَهْلِ بَيْتِهِ لَهُ، أَنَّهُمْ كَانُوا يُؤَسِّسُونَ لِمَدِيحِهِ مِنْ خِلَالِ الْحَدِيثِ عَنِ النُّورِ الْمُحَمَّدِيِّ، الَّذِي هُوَ سَبَبُ وَجُودِ الدُّنْيَا كُلِّهَا وَكَانَ هُوَ نُورَهَا.

لَقَدْ مَدَحْتَهُ عَمَّتُهُ عَاتِكَةٌ وَهِيَ تَذَكُرُ غَزْوَةَ بَدْرٍ، وَمَدَحَهُ عَمُّهُ حَمْزَةٌ وَهُوَ يَذَكُرُ اعْتِزَاظَهُ بِإِسْلَامِهِ، أَوْ حِينَ يَهْجُو الْكُفْرَانَ وَيَمْدَحُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَدَحَهُ عَمُّهُ أَبُو طَالِبٍ، وَابْنُ عَمِّهِ طَالِبُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَابْنُ عَمِّهِ أَبُو سَفْيَانَ بْنِ الْحَارِثِ. لَكِنَّ مَدِيحَ عَمِّهِ الْعَبَّاسِ كَانَ أَسَاسًا لِفَنِّ الْمَدِيحِ النَّبَوِيِّ الَّذِي لَا يَنْتَهِي عَلَى مَدَى الْأَزْمَانِ، بَلْ إِنَّ لِلْعَبَّاسِ قِصَائِدَ خَالِصَةً لِلْمَدِيحِ فَقَطْ.

يفتح العباس بن عبد المطلب إحدى قصائده الخالصة للمديح النبوي بقوله⁽¹⁾:

يَا قَاصِدًا نَحْوَ الْحَطِيمِ وَزَمْرَمٍ بَلَّغَ فَضَائِلِ أَحْمَدَ الْمُتَكْرِمِ
وَاشْرَحَ لَهُمْ مَا عَايَنْتَ عَيْنَاكَ مِنْ فَضْلِ لِأَحْمَدَ وَالسَّحَابِ الْمُرْكَمِ
قَدْ بَانَتِ الْآيَاتُ فِي السَّبِيلِ الَّذِي مَلَأَ الْفَجَاحَ بِسَبِيلِهِ الْمُتَرَاقِمِ

فقد ذكر حادثة الاستسقاء بالنبي صلى الله عليه وسلم، كما ذكر بعد ذلك حوادث أخرى، من بركاته صلى الله عليه وسلم، وختم قصيدته بقوله:

وَبِهِ تَوَسَّلَ فِي الْخَطِيئَةِ آدَمُ فَلْيَعْلَمِ الْأَخْبَارَ مَنْ لَمْ يَعْلَمِ

فلقد وردت بعض الأخبار التي تؤكد أن آدم توسل إلى الله تعالى، بالنبي صلى الله عليه وسلم، ذكرتها في شرح هذا البيت، في قسم الجمع، وهنا أريد تأكيد أن هذا النوع من المديح النبوي الخالص أسسه العباس بن عبد المطلب.

ومن أهم قصائد المديح النبوي، قصيدته التي ورد استثنائه النبي صلى الله عليه وسلم، مُنْصَرَفَةً مِنْ تَبُوكٍ، فِي أَنْ يَمْدَحَهُ، فَأُذِنَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَذَكَرَ الْعَبَّاسُ فِي قَصِيدَتِهِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ مُسْتَوْدَعًا فِي ظَهْرِ آدَمَ عَلَيْهِ

(1) القصيدة رقم (18) من مجموع شعر العباس بن عبد المطلب.

السلام، وهو في ظلال الجنة، ثم هبط إلى الأرض وهو في ظهره، فكان في ظهر سام بن نوح عليه السلام حين ركب السفينة، فكانت النجاة، وأنه كان في صلب إبراهيم الخليل عليه السلام حين وُضِعَ في النار، فلم يحترق، لأنه النبي الذي سيأتي ويُضيء الكون⁽¹⁾، فقال العباس⁽²⁾:

مِنْ قَبْلِهَا طَبَّتْ فِي الظَّلَالِ، وَفِي مُسْتَوْدَعٍ حَيْثُ يُخَصَفُ الوَرَقُ
ثُمَّ هَبَطْتَ البِلَادَ، لَا بَشَرٌ أَنْتَ، وَلَا مُضَغَةٌ، وَلَا عَلَقُ
بَلْ نُظْفَةٌ تَرَكَّبُ السَّفِينِ وَقَدْ أَلْجَمَ نَسْرًا وَأَهْلَهُ الغَرَقُ
تُنْقَلُ مِنْ صَالِبِ إِلَى رَحِمِ إِذَا مَضَى عَالَمٌ بَدَا طَبَقُ
وَرَدَّتْ نَارَ الخَلِيلِ مُكْتَتَمًا فِي صُلْبِهِ أَنْتَ، كَيْفَ يَحْتَرِقُ!

حتى صارت حقيقته ظاهرةً، فهو النور الذي نعيش به وفيه، وقال العباس في قصيدته:

وَأَنْتَ لَمَّا وُلِدْتَ أَشْرَقْتَ الـ أَرْضُ وَضَاءَتْ بِبُورِكَ الأفُقُ
فَنَحْنُ فِي ذَلِكَ الضِّيَاءِ وَفِي النـ نُورِ وَسُبُلِ الرَّشَادِ نَحْتَرِقُ

فلقد ذكر مادحوه صفاته الجمالية، من جمال الصورة وجمال السمائل، ودلالات نبوته قبل البعثة، وكراماته ومعجزاته بعدها، ثم جاءت قصيدة العباس لتفصح عن سبب نجاة الأنبياء والرسل السابقين عليهم السلام، حتى ظهرت أنواره صلى الله عليه وسلم وعمّت الأكوان.

ويرى د. علي صافي حسين، أن العباس في أبيات هذه القصيدة "يُصَوِّرُ لنا النبيَّ محمدًا صلى الله عليه وسلم، على أنه لم يكن من طبيعة البشر، أي أنه لم يُخْلَقْ من ماء وطين كغيره من أفراد بني الإنسان، وإنما هو حقيقة رُوحِيَّة، أو ذاتٌ نُورَانِيَّة، كانت تحيا قبل هذا الوجود الحسِّي في عالم المَلَكُوت، ثم حَلَّ في آدَمَ وقت أن أُسْكِنَ الجنة، فَلَمَّا عَصَى آدَمُ رَبَّهُ بِأَكْلِهِ من الشجرة التي نهاه الله عنها، هبط إلى الأرض - كما أخبر بذلك القرآن وغيره من الكتب السماوية- حَلَّتْ في صُلْبِهِ الذاتُ المحمدية ثم

(1) كانت تلك الحادثة قبل أن ينجب إبراهيم عليه السلام ابنه إسماعيل.

(2) القصيدة رقم (10) من مجموع شعر العباس بن عبد المطلب.

انتقلت منه إلى نُوح، وظلت تنتقل بعدُ من نبي إلى نبي، حتى ظهرت في شخص إبراهيم الخليل، ويقول العباس إن محمداً هو سبب نجات نوح من الطوفان، وسلامة إبراهيم من النيران، ثم يقول العباس - بعد ذلك كله- إن تلك الحقيقة الروحية أو هاتيك الذات النورانية قد ظهرت بأوضح صورها وأجلى معانيها في شخص محمد بن عبد الله حين ولدته آمنة بنت وهب في مكة المكرمة، حيث أشرقت الأرض وأضاءت بنوره الآفاق"⁽¹⁾.

ومع أن أحداً لا يعرف سبباً لقصيدة العباس الأخيرة، حيث إنه استأذن الرسول صلى الله عليه وسلم، أن يمدحه، فأذن له، وهذا أقصى ما رواه رواة الحديث، فإن د. علي صافي حسين، يرى "أن العباس بن عبد المطلب قد أراد من قصيدته هذه أن يحمل السامعين أو المخاطبين على اعتناق الإسلام من ناحية، والإيمان بأفضلية محمد صلى الله عليه وسلم، على كل الأنبياء، وأن رسالته أسمى وأشمل من كل الرسالات، من ناحية أخرى"⁽²⁾. ولأننا لا ندري عن السامعين شيئاً غير النبي صلى الله عليه وسلم وبعض أصحابه، فإننا لا يمكن أن نتكهن بالهدف من القصيدة، فربما كان الهدف من القصيدة هو مدح النبي صلى الله عليه وسلم مدحاً خالصاً فقط؛ تقرباً إلى الله بذلك. فالصلاة والتسليم عليه مفروضان على جميع المؤمنين في كتاب الله، والذي يفعل ذلك لا هدف له إلا التقرب إلى الله بهذا الفعل. ولا يبدو في هذا المديح غير إعلان عن فهمه للحقيقة المحمدية، وللنور المحمدي، وأنه يتقرب بمدحه إلى الله ورسوله.

ويرى د. هدارة أن في المدائح النبوية في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم، تطوراً في أسلوب المديح، من ناحية رقة اللفظ والاهتمام بالفكرة، بالإضافة إلى الاتجاه الإسلامي"⁽³⁾.

(1) المديح النبوي في القرن الأول الهجري، د. علي صافي حسين ص 127 و128.

(2) السابق ص 71.

(3) الشعر العربي في القرن الأول الهجري - د. محمد مصطفى هدارة ص 92.

ثالثًا - الرثاء

كثر شعرُ المراثي عند بني هاشم، حتى احتلَّ مرتبةً متقدِّمةً بين الأغراض الشعرية، كما كان مُعظَّم أصحابِ المراثي - لا كلِّهم - من النساء. وهو ما يجعل المراثي أشجَى، ولعله من المناسب الاستئناس بما قاله ابن رشيقي: "والنساءُ أشجَى الناسِ قلوبًا عند المصيبة، وأشدُّ جَزَعًا على هالك، لِمَا رَكَّبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في طباعِهِنَّ من الخَوَرِ وضعْفِ العزيمة".

وبعد أن أورد ابنُ رشيقي شعر الكمييت في رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذي عيبَ على الكمييت، قال: فهلاً قال مثلُ فاطمة رضي الله عنها⁽¹⁾:

اغْبَرَّ آفَاقَ السَّمَاءِ وَكُوِّرَتْ شَمْسُ النَّهَارِ وَأَطْلَمَ الْعَصْرَانِ
فَالأَرْضُ مِنْ بَعْدِ النَّبِيِّ كَيْبَةٌ أَسْفًا عَلَيْهِ كَثِيرَةُ الرَّجْفَانِ
فَلْيُنْكِهِ شَرْقُ الْبِلَادِ وَعَرْبُهَا وَلْيُنْكِهِ مُضَرٌّ وَكُلُّ يَمَانِي
وَلْيُنْكِهِ الطُّوْدُ الْمُعْظَمُ جَوْهُ وَالْبَيْتُ ذُو الْأَسْتَارِ وَالْأَرْكَانِ
يَا خَاتَمَ الرُّسُلِ الْمُبَارَكِ ضَوْؤُهُ صَلَّى عَلَيْكَ مُنَزَّلَ الْقُرْآنِ

لقد وجد النقادُ في مراثيها مثلاً يُحتذى في رثاءِ النبي صلى الله عليه وسلم، أو في ذِكْرِهِ. وليست المسألة هنا مسألة نساء شواعر، في طباعهن خورٌ وضعف عزيمة، بل هي أكبر بكثير، فإنها الصَّدِيقَةُ الزهراء، وهو أبوها، وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو سيد الأولين والآخِرِينَ، وراثؤها نموذجٌ فريد لا يتكرَّر، بل تضع به بعض التقاليد الشعرية التي يمكن لشاعرٍ آخِرٍ أن يسير على منوالها.

ولقد كثرت المراثي في شعر بني هاشم، ومنها ما جاء في رثاء الرسول صلى الله عليه وسلم، الذي سيأتي في نهاية مبحث الرثاء.

(1) العمدة لابن رشيقي ص 841.

أ- رثاء الآباء:

حين مات هاشمُ بنُ عبد مناف، غريباً عن موطنه مكة، في غزوة من أرض الشام، وجاء عبيده بخبر وفاته، رثته بناته: خالدة وصفية ورقية والشعثاء.
لقد رثته خالدة بمرثيتين، ثم قالت قصيدة رثت بها أباه وأعمامها، فحين جاء خبر وفاته قالت خالدة⁽¹⁾:

يا أيُّهَا النَّاعُونَ أَفْضَلَ مَنْ مَشَى الْفَاضِلَ ابْنَ الْفَاضِلِ ابْنَ الْفَاضِلِ
أَسَدُ الشَّرَى مَا زَالَ يَحْمِي أَهْلَهُ مِنْ ظَالِمٍ أَوْ مُعْتَدٍ بِالْبَاطِلِ
مَاضِي الْعَرَبِيَّةِ أَرْوَعُ ذُو هَمَّةٍ عُلياً وَجُودٍ كَالسَّحَابِ الْهَاطِلِ
زَيْنُ الْعَشِيرَةِ كُلِّهَا وَعِمَادُهَا عِنْدَ الْهَزَاهِرِ طَاعِنٌ بِالذَّابِلِ
إِنَّ السَّمِيدَ قَدْ مَضَى فِي بَلَدَةٍ بِالشَّامِ بَيْنَ صَحَاصِحٍ وَجَنَادِلِ
فِيلاحظُ أَنَّهَا فِي قولها (الفاضل بن الفاضل بن الفاضل) نسبتها إلى أجداده وذكرت أنه ورث الفضل كابرًا عن كابر، وأبًا عن جدٍّ، وذكرت ارتفاع نسبه بهذا التسلسل الذي يشبه سلسلة النسب، ثم ذكرت الصفات والقيم التي يُمدح بها الرجال والأبطال في الجاهلية، لكنَّ هذه الصفات كثيرة بحيث لا تجتمع في شخص واحد، إلا في هاشم بن عبد مناف.

أما قصيدة خالدة التي ترثي بها أباه وأعمامها، فتقول فيها⁽²⁾:

بَكَتْ عَيْنِي وَحُقَّ لَهَا بُكَاءُهَا وَعَاوَدَهَا إِذَا تُمَسِّي قَدَّاهَا
أُبْكِي خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وَمَنْ لَيْسَ النَّعَالَ وَمَنْ حَدَّاهَا
أُبْكِي هَاشِمًا وَبَنِي أَبِيهِ فَعَمِلَ الصَّبْرُ إِذْ مُنِعَتْ كَرَاهَا
وَكُنْتُ غَدَاةً أَدْكُرُهُمْ أَرَاهَا شَدِيدًا سَقَمُهَا بَادِ جَوَاهَا
فَلَوْ كَانَتْ نُفُوسُ الْقَوْمِ تُفْدَى فَدَيْتُهُمْ وَحُقَّ لَهُمْ فِدَاهَا

(1) انظر القصيدة رقم (1) من مجموع شعر خالدة بنت هاشم.

(2) انظر القصيدة رقم (5) من مجموع شعر خالدة.

وها هي الشعثاء بنت هاشم، في مريثة ترثي بها أباهما، وتعدّد كثيراً من الخصال التي لا يمكن أن تجتمع معاً في شخص واحد، إلا هذا الرجل، الأب، والسيد، والمعلوم صفاته لكل الناس⁽¹⁾:

عَيْنُ جُودِي بِعَبْرَةٍ وَسُجُومٍ وَاسْفَحِي الدَّمْعَ لِلْجَوَادِ الْكَرِيمِ
عَيْنُ وَاسْتَعْبِرِي وَسُحِّي وَجُمِّي لِأَيِّكَ الْمَسْوَدِ الْمَعْلُومِ
هَاشِمِ الْخَيْرِ ذِي الْجَلَالَةِ وَالْمَجْدِ وَذِي الْبَاعِ وَالنَّدَى وَالصَّمِيمِ

وقالت صفيّة بنت هاشم ترثيه⁽²⁾:

أَلَا أَيُّهَا الرُّكْبُ الَّذِينَ تَرَكْتُمُ كَرِيمَكُمُ بِالشَّامِ رَهْنٌ مَقَامِ
أَلَمْ تَعْرِفُوا مَا قَدْرُهُ وَفَخَارُهُ أَلَا إِنَّكُمْ أَوْلَى الْوَرَى بِمَلَامِ
أَيَا عَبْرَتِي سُحِّي عَلَيْهِ فَقَدْ مَضَى أَخُو الْجُودِ وَالْأَضْيَافِ تَحْتَ رُحَامِ
إنها تلوم من كانوا معه، فلقد كان هاشم شخصية عظيمة، تستحق أن يؤتى بجثمانه ليُدْفَنَ إلى جوار الحرم، وإلى جوار أجداده، وأن يجتمع لدفيه كل من يُدرك مكانته. إنه بالفعل شخصية نادرة، تستحق أن يُعْمَلَ فيها القصائد، في حياته وبعد مماته.

وفي رثاء الآباء توجّد تجربة فريدة، حيث يسمع المرثي رثاءه بنفسه، قبل مماته. لقد كانت رغبة عبد المطلب بن هاشم - حين حضرته الوفاة - أن يسمع رثاءه من بناته قبل وفاته، فيقال إن بناته الست قد رثينه، لكنهنّ في هذا الكتاب خمس بنات، أما السادسة - وهي صفيّة - فكانت صغيرة في سن العاشرة، حين مات عبد المطلب، مما جعلنا نستبعد رثاءها لأبيها قبل وفاته.

لقد بكته بناته ووصفته بجوامع صفات الخير، التي كان لا بد أن يتأكّد من أنها محفوظة في الأذهان، وأنّ هذه الصفات تؤمن بها بناته، وبأنها المثل العليا التي يجب أن تتحقق في إنسان في مكانته. وعلى سبيل المثال، تقول أروى بنت عبد المطلب⁽³⁾:

(1) انظر القصيدة رقم (3) من مجموع شعر الشعثاء.

(2) انظر القصيدة رقم (2) من مجموع شعر صفيّة بنت هاشم.

(3) انظر القصيدة رقم (1) من مجموع شعر أروى.

بَكَتْ عَيْنِي وَحُقَّ لَهَا الْبُكَاءُ عَلَى سَمَحِ سَجِيئَتِهِ الْخِيَاءِ
عَلَى سَهْلِ الْخَلِيقَةِ أَبْطَحِي كَرِيمِ الْخِيَمِ، نَيْتُهُ الْعِلاءُ
عَلَى الْفِيَاضِ شَيْبَةُ ذِي الْمَعَالِي أَيْبِكِ الْخَيْرِ لَيْسَ لَهُ كِفَاءُ
طَوِيلِ الْبَاعِ أَمْلَسَ شَيْطَمِيَّ أَعْرَكَ أَنَّ عُرَّتَهُ ضِيَاءُ

لم تتوقف أروى عند هذا الحد من الوصف، لكنها واصلت سرد صفاته حتى البيت العاشر (الأخير) من القصيدة، فلم تترك صفة من صفات الخير إلا وجدتها فيه. وكذلك فعلت أخواتها في مراثيهن لأبيهن عبد المطلب.

ويلاحظ على شعر الرثاء أن الشاعرة قد تعدد الصفات الحميدة للمرثي، وقد تنفي عنه الصفات الرديئة، وهو ما لم يستسغهُ جورج غريب في شعر عاتكة بنت عبد المطلب⁽¹⁾، حين تنفي الصفات الذميمة عن المرثي، كأن تقول في رثائها لأبيها:

أَعَيْنِي وَاسْتَحْرِطًا وَاسْجَمًا عَلَى رَجُلٍ غَيْرِ نَكْسٍ كَهَامٍ
فهي تصفه بأنه غير نكس، أي: غير ضعيف، وغير كهام، والكهام من السيف الكليل الذي لا يمضي. وهو غير مُحِقٌّ في ملحوظته، لأنها طريقة في التعبير استعملها العرب في المدح، واستعملها القرآن الكريم، حيث نفى كثيرًا من الصفات الذميمة عن الرسول صلى الله عليه وسلم، فالوصف بمخالفة الصفات الذميمة نوع من المدح⁽²⁾.

ب- رثاء الأبناء:

كان لعبد المطلب بن هاشم أملٌ كبير في أن يرث أبناؤه أمجاده وصفاته، وأن يبدءوا من حيث انتهى، لكن الموت اختطف الحارث بن عبد المطلب، أكبر أبنائه، والذي كان له دَوْرٌ معه في حفر زمزم، وفي كثير من الأحداث، وقد سَقِيَ السُّمَّ بسبب عَفَّتِهِ،

(1) شاعرات العرب في الجاهلية، لجورج غريب ص 224 و 225.

(2) لا يخفى أن هذا في كثير من آيات القرآن الكريم، ومن أمثال ذلك قوله تعالى: ﴿وما صاحبكم بمجنون﴾ [سورة التكويد: 22]. وقد نفى القرآن عن النبي صلى الله عليه وسلم في سياق المدح هذه الصفة أيضًا، في قوله تعالى: ﴿ما أنت بنعمة ربك بمجنون. وإن لك لأجرًا غير مُمْتُون. وإنك لعلى خلقٍ عظيم﴾ [سورة القلم: 2-4]. وغير ذلك من آيات.

ومخالفته هوى امرأة شبة هي زوجة الملك الذي كان يُنادمه. لقد جنع عليه عبد
المطلب جزعاً شديداً، فدعا لهذا الجسد المسجى بالسقيا، وكيف ينسأه وأعلام الحرم
مرفوعة تُدكره بآماله فيه، فقال عبد المطلب⁽¹⁾:

سَقَى الْإِلَهَ صَدَى وَارِثُهُ بِيَدِي بِيَطْنِ مَكَّةَ يَغْفُوهُ الْأَعَاصِيرُ
يَا حَارِثَ الْخَيْرِ قَدْ أَوْرَثْتَنِي شَجْنَا فَمَا لِقَلْبِي عَنْ ذِكْرِكَ تَغْيِيرُ
فَلَسْتُ أَنْسَاكَ مَا هَبَّتْ شَامِيَةٌ وَمَا بَدَأَ عِلْمٌ فِي الْآلِ مَعْمُورُ
ثم جاء الفقد الآخر لابنه عبد الله، الذي كان حريصاً عليه، وتوسّل إلى الله كثيراً أن
لا يقع عليه الاختيار ليذبحه وفاءً بنذره، وزوجه، لكنه بعد زواجه بقليل جاءت أنباء
وفاته ودُفِنه بالمدينة، فقال عبد المطلب⁽²⁾:

أَحْبَبْتِي هَانَ كُلِّ الشَّيْءِ فِي نَظْرِي لَمَّا رَحَلْتُمْ وَمَا قَضَيْتُمْ وَطَرِي
غَبْتُمْ عَنِ الْعَيْنِ، فِي قَلْبِي لِبُعْدِكُمْ نَارٌ تَلْهُبُهَا يُغْشِي عَلَى بَصْرِي
لَكِنْ قَضَى اللَّهُ رَيِّي، لَا مَرَدَّ لَهُ، فَلَأَحْذَرَنَّ لِمَا يَجْرِي بِهِ قَدْرِي

لقد كانت له فيه آمالٌ لم يرها وهي تتحقق، فماذا يفعل أمام قدر الله إلا التسليم
له؟!

ج- رثاء الإخوة:

حين مات عبد المطلب بن هاشم، رثته أخواته الثلاث: الشعثاء وصفية ورقية،
فأظهرن جزعهنّ على وفاته، ووصفنه بصفاته. فمما قالته الشعثاء⁽³⁾:

أَلَا يَا عَيْنُ وَيُحَكِّ أَسْعِدِينِي بِدَمْعٍ وَآكِفٍ هَطَلٍ غَزِيرِ
عَلَى سَمْحِ السَّجِيَّةِ ذِي فَضُولِ كَرِيمِ الْخِيمِ ذِي نَقْلِ كَثِيرِ
طَوِيلِ الْبَاعِ أَرْوَعِ شَيْطَمِيٍّ أَغْرَ كَغُرَّةِ الْقَمَرِ الْمُنِيرِ

(1) انظر القطعة رقم (1) من المستدرک علی شعر عبد المطلب.

(2) انظر القطعة رقم (2) من المستدرک علی شعر عبد المطلب.

(3) انظر القصيدة رقم (1) من مجموع شعر الشعثاء.

عَلَى الْفَيَاضِ شَيْبَةَ ذِي الْمَعَالِي أَيْحِكِ مِنْ أَعْظَمِ الْحَدَثِ الْكَبِيرِ

وحين مات الحارث بن عبد المطلب، رثته أخته البيضاء أم حكيم، فذكرت أنه صاحب فضائل، وهو شهيد الفضيلة بالفعل، فقد عادت عليه الفضيلة بالموت مسموماً، وقالت في مطلع مرثيتها⁽¹⁾:

مَا لِلدِّيَارِ قَدْ أَفْحَمَتْ مِنْ رَبِّهَا مَيِّتِ الْجَلالِ
مَيِّتِ الرَّزِيَّةِ وَالْمُصِيْبَةِ وَالْفَضِيلَةِ وَالْفِعَالِ
فَلَمَّا هَلَكْتَ لَتُورَتِنِ مِنْ خَيْرِ مِيرَاثِ الرَّجَالِ

وبعد أن توفي الزبير بن عبد المطلب، رثته أخته صفية، وكان مما رثته به قولها⁽²⁾:

قَدْ كَانَ فِي نَفْسِي أَنْ أَتْرُكَ الْـمَمَوْتِي وَلَا أَتْبِعَهُمْ قَافِيَهُ
فَلَمْ أَطِقْ صَبْرًا عَلَى زُرِّيهِ وَجَدْتُهُ أَقْرَبَ إِخْوَانِيهِ
لَوْ لَمْ أَقُلْ مِنْ فِيِّ قَوْلًا لَهُ لَقَضَّتِ الْعَبْرَةَ أَضْلَاعِيهِ
فَهُوَ الشَّامِي وَالْيَمَانِي إِذَا مَا خَضِرُوا، دُو الشَّفْرَةِ الدَّامِيهِ

فهي تربيته لتستريح من كتمان الألم، وتذكر صفاته المعروفة عنه، فهو السيف إذا خَضِرُوا (جمعوا الكتائب)، وشفرته دامية، ومع أنه ليس شقيقاً لها فهو أقرب إخوانها إليها، بفضل رفقه بإخوته وأخواته، وبفضل رعايته لهم، ووراثته مسئوليات أبيه. فكان لا بد لها من الرثاء، الذي كانت قد قرّرت أن تتركه.

ولمّا مات أبو طالب، المُدْفِعُ الأوَّلُ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، والذي تحمّل من أجله حصار بني هاشم في الشعب، كان لا بد من رثائه والإعلان عن وارثه في الدفاع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فها هو أخوه حمزة بن عبد المطلب يرثيه، وسط شماتة الكفار في النبي صلى الله عليه وسلم، فقد ظنوا أنهم قد انتهوا من أبي

(1) انظر القصيدة رقم (4) من مجموع شعر البيضاء في هذا الكتاب.

(2) انظر القصيدة رقم (26) من مجموع شعر صفية بنت عبد المطلب.

طالب، وأنه سيسهل عليهم التخلص من النبي صلى الله عليه وسلم. فحمزة يرثي أخاه
أبا طالب ويعلن في مراثيه أنهم لن يسلموا محمداً صلى الله عليه وسلم، بل انتقل من
الرتاء إلى مدح خير الأنام. يقول حمزة⁽¹⁾:

أخَا الْهَلِكِ، خَلَى ثَلَمَةً سَتَسُدُّهَا بُو هَاشِمٍ أَنْ تُسْتَبَاحَ وَتُضْهِدَا
فَأَمَسَتْ قَرِيشٌ يَفْرَحُونَ لِفَقْدِهِ وَلَسْتُ أَرَى حَيًّا لَشَيْءٍ مُخَلَّدَا
أَرَادُوا أُمُورًا زَيَّنَتْهَا حُلُومُهُمْ سَتُورِدُهُمْ يَوْمًا مِنَ الْغَيِّ مَوْرِدَا
يُرْجُونَ تَكْذِيبَ النَّبِيِّ وَقَتْلَهُ وَأَنْ يَفْتَرُوا بُهْتًا عَلَيْهِ، وَيُجْحَدَا
كَذْبَتُمْ وَبَيْتِ اللَّهِ حَتَّى نُذِيقَكُمْ صُدُورَ الْعَوَالِي وَالصَّفِيحَ الْمُهَنْدَا

ثم توصل حمزة إلى إيمانه بنصر الله لنبيه، وإلى مدحه صلى الله عليه وسلم، فقال:

وَإِنَّ لَهُ مِنْكُمْ مِنَ اللَّهِ نَاصِرًا وَلَسْتُ بِلَاقٍ صَاحِبَ اللَّهِ أَوْحَدَا
نَبِيِّ أَتَى مِنْ كُلِّ وَحْيٍ بِحِطِّهِ وَسَمَاهُ رَبِّي فِي الْكِتَابِ مُحَمَّدَا
أَعْرُكَ أَنَّ الْبَدْرَ سُنَّةٌ وَجْهَهُ جَلَا الْغَيْمِ عَنْهُ ضَوْؤُهُ فَتَوَقَّدَا
أَمِينٌ عَلَيَّ مَا اسْتَوَدَعَ اللَّهُ قَلْبَهُ وَإِنْ قَالَ قَوْلًا كَانَ فِيهِ مُسَدَّدَا

لقد كان لراثه هذا أهمية في توصيل رسالة إلى كفار قريش ومُعانديهم، بأن الثغرة
التي تركها أبو طالب ستسدّها عنه بنو هاشم، وأنها مسألة مبدأ، كان يعتنقها أبو طالب.

د- رثاء الزوج والأقارب:

للزَّوْجِ مَكَانَةٌ عِنْدَ زَوْجَتِهِ، لَا تَسْتَطِيعُ مَفَارَقَتَهُ، وَأَبْسَطُ مَا يُمْكِنُ تَوَقُّعُهُ أَنْ تَرِثِيهِ مَنْ
تُطِيقُ الرِّثَاءَ، فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ مِنْ ذَوِي الْوَجَاهَةِ وَالْأَهْلِ الْمَشْهُورِينَ بِالْفَضَائِلِ فَهِيَ تَنْسِبُهُ
إِلَيْهِمْ، وَتَنْسِبُهُ إِلَى الْفَضَائِلِ، وَهِيَ رُقَيْقَةُ بِنْتُ أَبِي صَيْفِي بْنِ هَاشِمٍ، تَرِثِي ثَلَاثَةَ مَعَا:

(1) انظر القصيدة رقم (4) من مجموع شعر حمزة في هذا الكتاب.

زوجها نوفل بن أهيب بن عبد مناف بن زُهْرَةَ، وَعَمَّيْهِ: أبا قيس بن عبد مناف بن زُهْرَةَ،
المُسَمَّى راكب البريد، ووهب بن عبد مناف بن زُهْرَةَ، جَدَّ النبي صلى الله عليه وسلم.
فتقول رقيقة^(١):

يَا عَيْنُ بَكِّي رَاكِبَ الْبَرِيدِ
وَنَوْفَلَ الْخَيْرِ أبا يَزِيدِ
وَوَهْبًا الْمَكْرَمَ الْجُدُودِ
الْوَاهِبَ الْعَنْسَ مَعَ الْقُتُودِ

فقد كان من مفاخر أبي قيس بن عبد مناف، أنه كان يُسَمَّى راكب البريد، لأنه كان له
اتصالٌ بملوك العراق والشام، فحمله بعضهم على البريد، فسُمِّي راكب البريد. وهو عمُّ
زوجها نوفل بن أهيب بن عبد مناف، الذي يُكنى أبا يزيد. ولزوجها عمُّ آخرُّ هو وَهْبُ
بن عبد مناف بن زُهْرَةَ، جَدُّ النبي صلى الله عليه وسلم، أبو أمِّه، وقد وصفته بأنه مُكْرَمُ
الجدود- ومن ثمَّ هُمُ جميعًا- وبأنه الواهب العنس مع القُتُود، وهذا من السعة في
الكرم، حيث يُعطي الجمل بما حمل، فالعنسُ الناقَةُ القوية، والقُتُود جمعُ القَتْد، وهو
جميعُ أدَوَاتِ الرَّحْلِ، ومن دواعي الكرم أن يَهَبَ في سعة. ونلاحظ أنها حين ذكرت
اسم زوجها (نوفل) أتت بمعناه اللغوي (وهو الرجل المعطاء) وأضافته للخير، فهو نوفل
اسمًا وفعالًا^(٢).

هـ- رثاء النبي صلى الله عليه وسلم:

لقد مرَّ بنا رثاءُ السيدة فاطمة الزهراء لأبيها النبي صلى الله عليه وسلم، أما عن
شعراء هذا الكتاب الذين جمعتُ شعرهم، فقد رثاه أبو سفيان بن الحارث، وأروى بنت
عبد المطلب، وهند بنت الحارث بن عبد المطلب، ورثته عمته عاتكة بثلاث مرات،

(١) انظر القطعة رقم (1) من مجموع شعر رقيقة، في هذا الكتاب.

(٢) يجوز أن يكون لفظ (الخير) مجرورًا بالإضافة، كما يجوز أن يكون نعتًا منصوبًا، بمعنى (الخير)، ولذلك ضبطتها بالحركتين في
قسم الجمع من هذا الكتاب.

ورثته عمته صفية باثنتي عشرة مرثية. فبلغت مراثيه صلى الله عليه وسلم ثماني عشرة مرثية عند شعراء هذا الكتاب.

فأمَّا ابنُ عمِّه أبو سفيان بن الحارث، فقد عبَّر عن المصيبة بفقده صلى الله عليه وسلم، وبفقدِ الوحي والتنزيل، وجلاء الشك، ثم انتقل إلى مدحه^(١):

أَصْبِنَا بِالنَّبِيِّ وَقَدْ رَزَانَا مُصِيبَتَا فَمَحْمَلُهَا ثَقِيلُ
نَبِيِّ كَانَ يَجْلُو الشَّكَّ عَنَّا بِمَا يُوحَى إِلَيْهِ وَمَا يَقُولُ
وَيَهْدِينَا فَلَا نَخْشَى ضَلَالًا عَلَيْنَا وَالرَّسُولُ لَنَا دَلِيلُ
يُخَبِّرُنَا بِظَهْرِ الْغَيْبِ عَمَّا يَكُونُ فَلَا يَخُونُ وَلَا يَحُولُ
فَلَمْ نَرَ مِثْلَهُ فِي النَّاسِ حَيًّا وَلَيْسَ لَهُ مِنَ الْمَوْتَى عَدِيلُ
وأما ابنة عمِّه هند بنت الحارث، فإنها تفجعت عليه، ومدحته بالبارك وبالميمون،
وينسبه الصريح غير المختلط، بل إنها نسبته إلى أمه آمنة، التي كان لها شأن بين
قومها، وكانت تُدعى حكيمة بني زهرة، فقالت^(٢):

لَقَدْ أَتَنِي مِنَ الْأَنْبَاءِ مُعْضَلَةٌ أَنَّ ابْنَ آمِنَةَ الْمَأْمُونِ قَدْ ذَهَبَا
أَنَّ الْمُبَارَكِ وَالْمَيْمُونِ فِي جَدَثٍ قَدْ أَلْحَفُوهُ تُرَابِ الْأَرْضِ وَالْحَدَبَا
أَلَيْسَ أَوْسَطُكُمْ بَيْتًا وَأَكْرَمُكُمْ خَالًا وَعَمًّا كَرِيمًا لَيْسَ مُؤْتَشَبَا

يتبقى أمامنا رثاء عمَّاته له صلى الله عليه وسلم: أروى، وعاتكة وصفية. وهنَّ متابعات
لكل خطواته منذ بداية الدعوة. أمَّا أروى فتستهل مرثيتها بالدموع فتقول^(٣):

أَلَا يَا عَيْنُ وَيَحَاكَ أَسْعِدِينِي بِدَمْعِكَ - مَا بَقِيَتْ - وَطَاوَعِينِي
أَلَا يَا عَيْنُ وَيَحَاكَ وَاسْتَهَلِّي عَلَى نُورِ الْبِلَادِ وَأَسْعِدِينِي
فَإِنْ عَذَلْتُكَ عَاذِلَةٌ فِقُولِي: عَالَمٌ وَفِيمِ وَيَحَاكَ تَعْدِلِينِي؟

(١) انظر القصيدة رقم (13) من مجموع شعر أبي سفيان بن الحارث.

(٢) انظر القصيدة الوحيدة لهند بنت الحارث، في قسم الجمع.

(٣) انظر القصيدة رقم (3) من مجموع شعر أروى.

عَلَى نُورِ الْبِلَادِ مَعًا جَمِيعًا رُسُولَ اللَّهِ أَحْمَدَ فَانْزَكِينِي
فَهِ تَذْكُرُ نَبُوْتَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتَنْعَتَهُ بِأَنَّهُ نُورُ الْبِلَادِ جَمِيعَهَا، وَقَدْ فَقَدْتَ
الْبِلَادُ نُورَهَا، وَقَدْ فَقَدْتَهُ هِيَ أَيْضًا.

وَأَمَّا عَاتِكَةُ فَتَسْتَهْلُ مَرَاتِبَهَا الثَّلَاثَ بِالْدموعِ وَالبكاءِ - أَيْضًا - فَتَقُولُ فِي إِحْدَاهَا^(١):

يَا عَيْنُ جُودِي - مَا بَقِيَتْ - بِعَبْرَةٍ سَخًّا عَلَى خَيْرِ الْبَرِيَّةِ أَحْمَدِ
يَا عَيْنُ فَاحْتَفِلِي وَسُحِّي وَاسْجُمِي وَابْكِي عَلَى نُورِ الْبِلَادِ مُحَمَّدِ
أَنْى - لَكَ الْوَيْلَاتُ - مِثْلُ مُحَمَّدٍ فِي كُلِّ نَائِبَةٍ تَنْوِبُ وَمَشْهَدِ
فَابْكِي الْمُبَارَكَ وَالْمَوْفَّقَ ذَا التَّقَى حَامِي الْحَقِيقَةَ ذَا الرَّشَادِ الْمُرْشِدِ

أَمَّا الْمَرَاتِبُ الْإِثْنَتَا عَشْرَةَ لَصَفِيَّةِ بِنْتِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ، فَمِنْهَا قَطْعَتَانِ كُلُّ مِنْهُمَا بَيْتٌ
وَاحِدٌ لَا نَعْرِفُ لَهُ بَقِيَّةً. وَأَمَّا مَرَاتِبُهَا الْعَشْرُ الْأُخْرَى فَقَدْ اسْتَهَلَّتْ خَمْسًا مِنْهَا بِالْدموعِ،
وَأَرْبَعًا بِالْأَرْقِ وَطُولِ اللَّيْلِ وَمَجَافَاةِ الْوَسَادِ، وَوَاحِدَةً بِالْخَوْفِ مِمَّا تَرَكَهُ الرَّسُولُ مِنْ فِرَاغِ
ثُمَّ بَدَأَتْ تَعْبِرُ عَنِ الْبِكَاءِ فِي الْبَيْتِ الثَّلَاثِ، حَيْثُ قَالَتْ^(٢):

أَلَا يَا رَسُولَ اللَّهِ كُنْتَ رَجَاءَنَا وَكُنْتَ بِنَا بَرًّا وَلَمْ تَكُ جَافِيَا
وَكُنْتَ رَحِيمًا هَادِيًا وَمُعَلِّمًا لِيَكُ عَلَيْكَ الْيَوْمَ مَنْ كَانَ بَاكِيًا
لَعَمْرُكَ مَا أَبْكِي النَّبِيَّ لِفَقْدِهِ وَلَكِنْ لِمَا أَخْشَى مِنَ الْهَرْجِ آتِيَا
كَأَنَّ عَلَى قَلْبِي لِذِكْرِ مُحَمَّدٍ - وَمَا خِفْتُ مِنْ بَعْدِ النَّبِيِّ - الْمَكَوِيَا

لَقَدْ نُكِبَ الْمُسْلِمُونَ بِوَفَاةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَانَ أَهْلُ بَيْتِهِ أَشَدَّ إِحْسَاسًا
بِتِلْكَ النُّكْبَةِ، وَقَدْ وَصَفَتْ صَفِيَّةُ ذَلِكَ الْإِحْسَاسَ بِقَوْلِهَا^(٣):

طَالَ لَيْلِي أَسْعِدَنِي أَحْوَاتِي لَيْسَ مَيْتِي كَسَائِرِ الْأَمْوَاتِ
لَيْسَ مَيْتِي كَمِثْلِ مَيْتِ مَنْ النَّاسِ وَلَا كَانَ مِثْلَهُ فِي الْحَيَاةِ

(١) انظر القصيدة رقم (2) من مجموع شعر عاتكة.

(٢) انظر القصيدة رقم (24) من مجموع شعر صفية بنت عبد المطلب، من هذا الكتاب.

(٣) القطعة رقم (6) من مجموع شعر صفية في هذا الكتاب.

طَالَ لَيْلِي لِنَكْبَةٍ قَطَعْتِي لَا أَرَى مِثْلَهَا مِنَ النَّكَبَاتِ

وهي تتألم لألم أهل بيته، فقد صار الحسنُ يتيمًا بوفاته صلى الله عليه وسلم^(١):
أَرَى حَسَنًا أَيْتَمْتَهُ وَتَرَكْتَهُ يُبْكِي وَيَدْعُو جَدَّهُ الْيَوْمَ، نَائِيًا

وهي تصف حجم المصيبة بوفاته، في قطعة لها تقول فيها^(٢):

يَا عَيْنُ جُودِي بِدَمْعٍ مِنْكَ مُنْحَدِرٍ وَلَا تَمَلِّي وَبَكِّي سَيِّدَ الْبَشَرِ
بَكِّي الرَّسُولَ فَقَدْ هَدَّتْ مُصِيبَتُهُ جَمِيعَ قَوْمِي وَأَهْلَ الْبَدْوِ وَالْحَضَرِ
وَلَا تَمَلِّي بُكَاءِ الدَّهْرِ مُعَوْلَةً عَلَيْهِ مَا غَرَّدَ الْقُمْرِيُّ بِالسَّحْرِ

وهي تصفه - في مراثيها - بالنبي، وبالرسول، وبالحييب، فقالت في إحدى مراثيها^(٣):

إِذْ رَأَيْنَا أَنَّ النَّبِيَّ صَرِيعٌ فَأَشَابَ الْقَدَالَ أَيَّ مَشِيبِ
إِذْ رَأَيْنَا بِيُوتَهُ مُوَحِّشَاتٍ لَيْسَ فِيهِنَّ بَعْدَ عَيْشِ حَبِيبِي
أُورِثَ الْقَلْبَ ذَاكَ حُزْنًا طَوِيلًا خَالَطَ الْقَلْبَ، فَهُوَ كَالْمَرْغُوبِ
لَيْتَ شِعْرِي وَكَيْفَ أُمْسِي صَحِيحًا بَعْدَ أَنْ بَيْنَ بِالرَّسُولِ الْقَرِيبِ

فكلمة (حبيبي) تقصد بها الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم، وهذا الحبُّ هو منبع ذلك الرثاء الحارّ الذي انتهجته عمّته صفة، ووجدنا لها فيه اثنتي عشرة مرثية، في خمسة وسبعين بيتًا، توزّعت على خمسة أبحر، مع غلبة بحر الخفيف عليها، وكأنها كانت انقطعت لراثه، وتريد أن تسلك طرقًا عدّة لراثه، على معظم أبحر الشعر العربي.

(١) القطعة رقم (24) من مجموع شعر صفة.

(٢) القطعة رقم (16) من مجموع شعر صفة في هذا الكتاب.

(٣) نقد الشعر لقدامة ص113.

رابعاً- الهجاء

الهجاء ضد المديح، ولذلك يقول قدامة بن جعفر: "فكلما كثرت أصدادُ المديح في الشعر كان أهجى له"^(١). ويرى ضياء الدين بن الأثير أنَّ أبلغ الهجاء "ما قرُبَتْ معانيه، وسهل حفظه، وأسرع علوقه بالقلب، وخرج منخرج التهكم والتهافت، وكان بيِّن التصريح والتعريض"^(٢).

ارتبط الهجاء بالحروب وبالخلافات التي تنشب بين الناس، فكان الهجاء الشخصي والهجاء الخُلقيّ، بالطعن في الأنساب أو في الأخلاق، أما الهجاء الديني والسياسي فقد تم توظيفهما في الإسلام للتفريق بين الحق والباطل، ولكشف الأعياب السياسة.

أ- الهجاء قبل الإسلام

لا يُشكّل الهجاء ظاهرة كبيرة عند بني هاشم قبل الإسلام، فقد انحصر في الردّ على منتقصي حقوقهم، أو مَنْ يُغَالطون فينسون فضلهم. وقد وجدنا بيتين لعبد المطلب بن هاشم، قالهما وهو غاضب، حيث كتب بعضُ الجبابرة إلى أهل مكة يطلب منهم الإتاوة، فكتب إليه عبد المطلب هذين البيتين اللذين يُعدّان رسالة شديدة اللهجة^(٣):

العَبْدُ يَتَبَعُكُمْ يُرِيدُ حِبَاكُمْ وَمَحَلُّهُ بِالْمَنْزِلِ الْمُتَدَلِّلِ
إِنَّا أَنَاسٌ لَا نَدِينُ بِأَرْضِنَا عَضَّ الرَّسُولُ بِبَطْرِ أُمَّ الْمُرْسَلِ

وكان أبو جهل قد أبى تأمير النبي صلى الله عليه وسلم على بني هاشم في سفرهم إلى الشام، حين سافر بأموال خديجة، بحجة أنه ينتقص منه كونه نشأً يتيماً، فلا يجوز تسييده، وكان بنو هاشم يُجلُّونه صلى الله عليه وسلم، لما كانوا يرون من بركاته، ومن

(١) انظر القطعة رقم (4) من المستدرک علی شعر عبد المطلب.

(٢) كفاية الطالب لابن الأثير ص97.

(٣) انظر القطعة رقم (4) من المستدرک علی شعر عبد المطلب.

دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم، فردَّ العباسُ بنُ عبد المطلب، يهجو أبا جهل ويهدده، ويفتخر بقومه جميعاً، ويمدح النبي صلى الله عليه وسلم، قائلاً⁽¹⁾:

ألا أيُّها الوغدُ الَّذِي رَامَ ثَلْبِنَا أَثْلِبُ قَرَمًا فِي الرَّجَالِ كَرِيمًا
أثْلِبُ- يَا وَيْكَ- الْكَرِيمَ أَخَا الثَّقَى حَبِيبًا لِرَبِّ الْعَالَمِينَ عَظِيمًا
ولولا رِجَالٌ قَد عَرَفْنَا مَحَلَّهُمْ وَكُلًّا تَرَاهُمْ مَحْتِدًا وَرَعِيمًا
لِدَارَتِ سُيُوفٍ يُفْلِقُ الْهَامَ حَدُّهَا بِأَيْدِي رِجَالٍ ضَارِبِينَ سَلِيمًا
حُمَاةً كَمَاةً كَالْأَسُودِ ضَرَاغِمٍ إِذَا بَرَزُوا صَارَ الْفَضَاءُ جَحِيمًا
ويُروى لأبي سفيان بن الحارث بيتٌ واحد، فيه هجاءٌ شخصيٌّ جاهليٌّ، حيث ينتقص فيه أبو سفيان بن الحارث من عمرو بن العاص، ويطعن في نسبه، مُشيرًا إلى قصة ترويتها بعض المصادر عن أنه ادَّعاهُ أربعة، هم: أمية بن خلف، وهشام بن المغيرة، وأبو سفيان بن حرب، والعاص بن وائل السهمي، فقالت النابغة أمه: هو من العاص بن وائل، لأنه كان يُنفق عليها، وكان بأبي سفيان أشبهه، وعلى الرغم من أن المصادر لا تنص على توقيت هذا الهجاء، إذا كان قبل الإسلام أو بعده، فإنه بالهجاء الجاهلي الصَّحْق وأشبهه، كما أنَّ أبا سفيان بن الحارث ذكر قبل موته أنه لم يتنطَّف- أي يتلطَّخ- بخطيئة منذ أسلم، فيكون هجاؤه هذا في زمن الجاهلية، أو في زمن جاهليته هو، أي قبل إسلامه، حيث يقول⁽²⁾:

أُبُوكَ أَبُو سُفْيَانَ لَا شَكَّ قَدْ بَدَتْ لَنَا فِيكَ مِنْهُ بَيْنَاتُ الشَّمَائِلِ

وهذا الهجاء المذكور في الجاهلية لا يُشكل ظاهرة، فإنه لا يتعدى بعض المواقف والأحداث، لكنه هجاءٌ عنيف، فالبيتان اللذان أرسلهما عبد المطلب يمتنعان من يسمعهما من محاولة التَّيْل من قريش، كما أن أبيات العباس تمنع كُلَّ من تُسَوَّل له نفسه انتقاصَ أحدٍ من بني هاشم.

(1) انظر القصيدة رقم (17) من شعر العباس بن عبد المطلب.

(2) انظر القطعة رقم (14) من شعر أبي سفيان بن الحارث، في مجموع شعره من هذا الكتاب.

ب- الهجاء في الإسلام

حين جاء الإسلام، لم يكن بنو هاشم جميعاً ممن أسلموا، فالذين أسلموا نصرُوا الرسول صلى الله عليه وسلم، بأقوالهم وأفعالهم، ولم يتعرَّض له أحد ممن تأخَّر إسلامه إلا أبو سفيان بن الحارث، الذي لم يسلم إلا قبيل فتح مكة، وكان قبل ذلك يهجو الرسول صلى الله عليه وسلم، ويهجو المسلمين، وكان له مع حسان بن ثابت نقائص، بل كان ينتهز أي فرصة لهجاء الأنصار، ومن ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم أرسل سرية لم يكن فيها من الأنصار أحد، إلا أن القرشيين كان يغيظهم قوة شوكة المهاجرين وهُم بين الأنصار، لذلك فإن أبا سفيان بن الحارث، ردَّ على هذه السرية التي لم يكن بها أحد من الأنصار، بهجاء الأنصار، قائلاً⁽¹⁾:

سَأْمَنُحُ جَانِبًا مِّنِّي غَلِيظًا عَلَى مَا كَانَ مِنْ قُرْبٍ وَبُعْدٍ
رَجَالُ الْخَزْرَجِيَّةِ أَهْلُ ذَلِكَ إِذَا مَا كَانَ هَزْلٌ بَعْدَ جِدِّ

وهو- قبل إسلامه- كان كثير الهجاء لحسان، لأنه العقبة الكبرى للدعاية ضد الإسلام والمسلمين، وكان يفضح المشركين وأفعالهم ويدُّكر بمثالبهم، ولذلك هجاه أبو سفيان هجاءً شخصياً ينال منه، قائلاً⁽²⁾:

أَلَا مَنْ مَبْلَغُ حَسَّانٍ أَنِّي خَلَفْتُ أَبِي وَلَمْ تَخْلُفْ أَبَاكَ
إِنْ أَنْتَ خَلَفْتَهُ لَمْ تُغْنِ شَيْئًا وَزَلَّتْ عَنْ عَرَا الْعَلِيَا يَدَاكَ

لقد كانت الحرب الكلامية مُشتعلةً بين المسلمين ومُشركي قريش، وقد فضح أفعالهم حسان بن ثابت، فكان يرد أبو سفيان بنقيضة يهجو فيها حسان بن ثابت، ويُحاول أن يُبرِّر أفعال المشركين ويُخطئ المسلمين. فقد كان أصحاب رسول الله صلى

⁽¹⁾ القطعة رقم (4) من شعر أبي سفيان بن الحارث، في مجموع شعره من هذا الكتاب.

⁽²⁾ القطعة رقم (10) من شعر أبي سفيان بن الحارث.

الله عليه وسلم، أصابوا في عَقَبِ بَدْرِ عَيْرًا لَقْرِيشَ، فيها فِضَّةٌ، فكانوا تَنَكَّبُوا طَرِيقَ الشَّامِ، وأخذوا طَرِيقَ العِرَاقِ. وكان أبو سُفْيَانَ بَنُ حَرْبٍ، وَعَدَّ أَنْ يَلْقَى المَسْلَمِينَ، فَكَانَتْ بَدْرُ الآخِرَةِ فِي شَعْبَانَ سَنَةِ أَرْبَعٍ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِ، وَتَحَرَّكَ أَبُو سُفْيَانَ ثُمَّ رَجَعَ، فَسُمِّيَتْ غَزْوَةُ السَّوِيقِ، أَوْ جَيْشِ السَّوِيقِ، حَيْثُ لَمْ يَفْعَلِ المَشْرُوكُونَ شَيْئًا غَيْرَ أَنَّهُمْ تَنَزَّهُوا وَشَرَبُوا السَّوِيقَ. فَقَالَ حَسَّانُ بَنُ ثَابِتٍ قَصِيدَةً يَهْجُو بِهَا أَبَا سُفْيَانَ ابْنَ حَرْبٍ، قَائِدَ جَيْشِ المَشْرُوكِينَ آنَئِذٍ، مَطْلَعُهَا:

دَعُوا فَلَجَاتِ الشَّامِ قَدْ حَالَ دُونَهَا جِلَادٌ كَأَفْوَاهِ المَخَاضِ الأَوَارِكِ

وَآخِرُهَا:

فَأَبْلَغُ أَبَا سُفْيَانَ عَنِّي رِسَالَةً فَإِنَّكَ مِنْ شَرِّ الرِّجَالِ الصَّعَالِكِ
فَأَجَابَهُ أَبُو سُفْيَانَ بَنُ الحَارِثِ، بِهَجَاءٍ جَاهِلِيٍّ، يُسَبِّهُ فِيهِ بِأَنَّ أُمَّه كَانَتْ مِنَ الحَيَوَانَاتِ، وَكُنِيَ عَنِ ذَلِكَ بِأَنَّهَا تَأْكُلُ قَشْرَ النَّخْلِ، وَهُوَ مَجْرَدُ سَبِّ جَاهِلِيٍّ، وَذَكَرَ فِي نَقِيضَتِهِ، سَرِيَّةَ المَسْلَمِينَ الَّتِي أَصَابَتْ العَيْرَ المَحْمَلَةَ بِالفِضَّةِ، فَقَالَ فِي أُولَاهَا⁽¹⁾:

أَحْسَانُ، إِنَّا يَا بَنَ آكِلَةِ الفَعَا وَجَدَّكَ نَغْتَالِ الخُرُوقِ كَذَلِكَ
خَرَجْنَا وَمَا تَنْجُو اليَعَافِيرُ بَيْنَنَا وَلَوْ وَأَلْتِ مِمَّا بِشَدِّ مُدَارِكِ

وَأَحَدٌ يُفَنِّدُ قَوْلَ حَسَّانِ، وَيُهْدِمُهُ، حَتَّى ذَكَرَهُ هُوَ فِي نَهَايَةِ القَصِيدَةِ بِأَنَّهُ لَا تُحْتَسَبُ لَهُ أَيُّ فِضِيلَةٍ، فَهُوَ لَيْسَ صَاحِبَ هِجْرَةٍ، كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ بِنَاسِكٍ، فَقَالَ فِي نَهَايَتِهَا:

حَسِبْتُمْ جِلَادَ القَوْمِ عِنْدَ قِبَابِهِمْ كَمَا خَذَكُمْ بِالعَيْنِ أَرْطَالَ أَنْكَ
فَلَا تَبْعَثِ الخَيْلَ الجِيَادَ وَقُلْ لَهَا عَلَيَّ نَحْوِ قَوْلِ المُعْصِمِ المْتَمَاسِكِ
سَعِدْتُمْ بِهَا وَغَيْرِكُمْ كَانَ أَهْلَهَا فَوَارِسُ مِنْ أبنَاءِ فَهْرٍ بَنِ مَالِكِ
فَإِنَّكَ لَا فِي هِجْرَةٍ إِنْ ذَكَرْتَهَا وَلَا حُرْمَاتِ الدِّينِ أَنْتَ بِنَاسِكِ

(1) القصيدة رقم (11) من شعر أبي سفيان بن الحارث.

ليس معنى ذلك أن حسان بن ثابت لم يهجهم هجاءً جاهلياً، بل إنه كان يبحث عن كل ما يُوجعهم، فيوجعهم به. وأسلم أبو سفيان بن الحارث، قبيل فتح مكة، فتوقفت نقائضُ حسان وأبي سفيان.

أمّا عن الهجاء قبل الهجرة، فقد كان يقوم به حمزة بن عبد المطلب، أسدُ الله وأسدُ رسوله، الذي تَوَلَّى مهمة الدفاع عن الرسول صلى الله عليه وسلم، منذ أسلم. وكان أبو جهل - لعنه الله - قد آذَى النبي صلى الله عليه وسلم، فلما علم حمزة شقَّ عليه ذلك، فذهب إلى أبي جهل وهو بين رجال قريش عند المسجد، وضربه بالقوس فشجَّه شجَّةً منكراً، وأعلن إسلامه أمام القوم ليكيده ومنَّ معه وليُعلن أمام قريش أنه يمنع النبي صلى الله عليه وسلم منهم، وقال حمزة أرجوزة شديدة اللهجة، بل يكفيه أنه حمَّله لقباً جديداً هو (أبو جهل)، للتفريق بين الجهالة والحلم، وبين الحق والباطل، ومنذ نَبَرَهُ بهذا اللقب صار معروفاً به، وعلماً عليه، حيث قال حمزة⁽¹⁾:

دُقْ يَا أَبَا جَهْلٍ بِمَا غَشَيْتَا
مَنْ أَمْرِكَ الظَّالِمِ إِذْ مَشَيْتَا
سْتُسْغَطُ الرُّغْمَ بِمَا أَتَيْتَا
تُؤْذِي رَسُولَ اللَّهِ إِذْ نَهَيْتَا
عَنْ أَمْرِكَ الظَّالِمِ إِذْ عَتَيْتَا

وهي أرجوزة تكلف فيها حمزة مشقَّة لزوم ما لا يلزم، وأتى بالياء ردفاً، كأنه يضغطُ على أضراسه، ويهدِّد ويتوعَّد، لتكون أرجوزة تاريخية محفورة في الأذهان، تردُّ كل من تسوَّل له نفسه إيذاء النبي صلى الله عليه وسلم.

(1) الأرجوزة رقم (2) من مجموع شعر حمزة.

ثم وضع حمزة تقليدًا شعريًا جديدًا في الإسلام، هو الهجاء الديني، حين ذمَّ كفار قريش بأنهم (كُفَّار)، فحين خرج حمزة بن عبد المطلب ليبارز أحدَ خصومه من المشركين يوم بدر، قال خصمه شعراً، منه قوله:

أَبَدُّ الخُلُقِ فِي المَيْدَانِ مُجْتَهِدًا فكيفَ تَسَلَّمُ مِنْ كَيْدِي وَمِنْ ضَرَرِي

فقال حمزة يرد عليه⁽¹⁾:

تَبَّا لِقَوْلِكَ مَا أَعْيَا عَنِ البَشَرِ ولو تكونوا بَعْدَ الرَّمْلِ وَالقَطْرِ
يا جَاهِلًا قَدْرُهُ، فالآنَ أَضْرِبُهُ بالسَّيْفِ عُنُقَكَ، لا تَغْتَرَّ بِالكُفْرِ
فَخُذْ- أيا كَافِرًا- ما لا كِفاءَ لَهُ فَقدَ أَتاكَ شَدِيدُ المَكْرِ وَالخَطَرِ

لقد ارتبط الهجاء بأحداث معينة، أو بظروف فيها حروب، ولا نكاد نعر على هجاء آخر، إلا في وقعة صنيين، حيث كان عمرو بن العاص مع معاوية، ومن أهم معاوينه في هذه الحرب، وفي إدارة الصراع ضد خاتم الخلفاء الراشدين الإمام علي بن أبي طالب، وكان عبد الله بن العباس مع علي، هو وأخوه الفضل. وكتب عمرو - بإشارة من معاوية- لعبد الله بن عباس كتابًا يُرَقِّقه فيه ويستميله، وكتب عمرو في آخره، قصيدة مطلعها:

طالَ البلاءُ فما يُرْجى له آسى بعدَ الإلهِ سوى رَفِقِ ابنِ عَبَّاسٍ
فُولا له قولَ مَنْ يَرْجو مودَّتَهُ لا تَنسَ حَظَّكَ، إِنَّ الخاسِرَ الناسِي

فردَّ عليه عبد الله بن عباس بكتاب، ثم دعا أخاه الفضل، فقال: يا بن أمِّ أجبَ عمراً، فردَّ الفضلُ على عمرو بقصيدة، وعرض الرَّدَّ على علي، فقال علي: أحسنت. ووضع عبد الله قصيدة الفضل في أسفل الكتاب. وقصيدة الفضل تكشف عن خداع عمرو بن

(1) القطعة رقم (6) من مجموع شعر حمزة.

العاص، وأن تريق عبد الله بن عباس مجرد وسواس تحدثه به نفسه أو يحدثه به الشيطان، وأن ما يفعل من ضلال ليس له دواءً إلا السيف⁽¹⁾:

يا عَمْرُو حَسْبُكَ مِنْ خَدَعٍ وَوَسْوَاسٍ فَادْهَبْ، فَمَا لَكَ فِي تَرْكِ الْهُدَى آسٍ
إِلَّا بَوَادِرُ طَعْنٍ فِي نُحُورِكُمْ تُشْجِي النَّفُوسَ بِهِ فِي نَقَعِ إِفْلَاسٍ
بِالسَّمْهَرِيِّ وَضَرْبٍ فِي شَوَارِبِكُمْ يُرْذِي الْكُمَاةَ وَيُذْرِي قُبَّةَ الرَّاسِ
هَذَا الدَّوَاءُ الَّذِي يَشْفِي جَمَاعَتَكُمْ حَتَّى تُطِيعُوا عَلِيًّا وَابْنَ عَبَّاسٍ

ويكشف له في القصيدة عن أن مطامعه الشخصية مكشوفة، وهي التي تتمثل في أن عمراً يرجو أن يكون أميراً على مصر، بعد أن يتم لمعاوية ما يريد، فيدعو عليه بالألأ يبارك له الله في ذلك، ويذكر أنه لا يستحق شيئاً منها، ويخوفه بالحرب:

قَتَلَى الْعِرَاقَ بِقَتْلَى الشَّامِ ذَاهِبَةً هَذَا بِهِذَا، وَمَا بِالْحَقِّ مِنْ بَاسٍ
لَا بَارَكَ اللَّهُ فِي مِصْرٍ؛ لَقَدْ جَلَبْتَ شَرًّا، وَحَظُّكَ مِنْهَا حُسُوءُ الْحَاسِي
يَا عَمْرُو إِنَّكَ عَارٍ مِنْ مَكَارِمِهَا وَالرَّاقِصَاتِ، لِأَثْوَابِ الْخَنَاسِي
إِنْ عَادَتِ الْحَرْبُ عُذْنَا فَالْتَمِسْ هَرَبًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سَلِّمًا فِي الْأُفْقِ يَا قَاسِي

خامسًا - الغزل والحب

لم نجد غزلاً وتشبيهاً بالنساء في الشعر الهاشمي، إلا في مقدمة غزلية واحدة في شعر الزبير بن عبد المطلب. لكن عاطفة الرجل نحو زوجته أو عاطفة الزوجة نحو زوجها، هو أهم ما عثرت عليه في أشعارهم، مع قلة ذلك، فإن ذلك لا يوجد إلا في قصيدتين اثنتين.

(1) القصيدة رقم (5) من شعر الفضل بن العباس بن عبد المطلب، في هذا الكتاب.

أ- المقدمة الطللية التمهيدية:

على عادة الشعراء الجاهليين في الوقوف على الأطلال في بداية القصيدة، بصفته تقليدًا شعريًا يُستخدمُ للتشويق، نجد قطعة واحدة في الفخر عند الزبير بن عبد المطلب، يبدوها بالوقوف على دار زينب، قائلاً⁽¹⁾:

يا دارَ زَيْنَبِ بِالْعِلْيَاءِ مِنْ شَرِبِ حَيِّتُهَا وَأَقْفَاءَ فَلَمْ تُجِبِ
إِنِّي امْرُؤٌ شَيْبَةٌ الْمَحْمُودُ وَالِدُهُ بَدَّ الرَّجَالَ بِحِلٍّ غَيْرِ مُؤْتَشَبِ
إِنِّي إِذَا رَاعَ مَالِي لَا أُكَلِّفُهُ إِلَّا الْغَزَاةَ وَإِلَّا الرُّكُضَ فِي السَّرْبِ

فها هو يقفُ عند شَرِبِ (وهو موضعُ قرب مكة وبه كانت وقعة الفِجَارِ العُظْمَى التي كان هو أميرًا فيها على بني هاشم)⁽²⁾، يُحْيِي دارًا درستُ فلا تُجيب، ثم ينتقل مباشرةً إلى الفخر بأبيه (شيبَةُ الحَمْدِ)، وهو اسم عبد المطلب، والذي أتى مُختلِفًا بعض الاختلاف في الشعر (شيبَةُ المحمودِ) - فلم يُصَفْ إلى الحمد وإنما وصف بأنه محمود - وبنسبه الصريح غير المختلط (غير مؤتشب).

ولم نعرف في حياة الزبير مَنْ تُسَمَّى زينب، كما أنَّ بني هاشم مقيمون وليسوا من العَرَبِ الرُّحَل الذين ينتقلون، وإنما الذي قاله الزبير من باب تقاليد الشعر، التي تُعرف بالوقوف على الأطلال؛ ولذلك فإنه من المناسب أن نذكر تسمية عبد الله عبد الجبار، هذا الغزل بالغزل التمهيدي، الذي فرض سلطانه على جميع أغراض الشعر، إنه "لا يصدر عن عاطفة الحب ولا يدفع الشهوة، وإنما هو وسيلة لجذب الانتباه وتهيئة الجو للشاعر كي ينفذ إلى القلوب لينال ما يريد"⁽³⁾.

(1) انظر شعر الزبير بن عبد المطلب (جمع د. المعيني) ص 136.

(2) معجم البلدان ج3 - ص 376.

(3) قصة الأدب في الحجاز، عبد الله عبد الجبار، وعبد المنعم خفاجي ص 526، وهذا الاقتباس يخص الكاتب الأول.

ب- استدعاء الزوجة في الفخر:

بعد غزوة حنين، افتخر العباس بن عبد المطلب، بوقوفه إلى جوار النبي صلى الله عليه وسلم، وبشاته إلى جواره ضمن تسعة فقط، في حين تفرق الباقيون، في قصيدة يبدؤها بقوله⁽¹⁾:

أَلَا هَلْ أَتَى عِرْسِي مَكْرِي وَمَوْقِفِي بِوَادِي حُنَيْنٍ وَالْأَسِنَّةُ تُشْرَعُ
وَقَوْلِي إِذَا مَا النَّفْسُ جَاشَتْ لَهَا: قِرِي وَهَامٌ تُدْهَدَى وَالسَّوَاعِدُ تُقَطَّعُ
وَكَيْفَ رَدَدْتُ الْخَيْلَ وَهِيَ مُغِيرَةٌ بِرُزُورَاءٍ تُعْطِي بِالْيَدَيْنِ وَتَمْنَعُ

فهو في موقف يستحق الفخر به، فيتساءل: هل بلغ امرأتي ما حدث: (مكري) أي حملتي على الأعداء والأسنة مشرعة؟ وتهدئي للنفس إذا جزعت من هول ما ترى، فأقول لها اهدئي، حين ترى الرءوس تتدحرج والسواعد تُقَطَّعُ، وكيف كنت أزد الخيل التي تُغِيرُ بِقَوْسِي الموجهة إليهم؟ فهل بلغ امرأتي كل ذلك؟

فهو تقليد شعري بين يدي القصيدة ولا يُعبّر عن أي أشواق أو ما أشبه، إلا أنه يريد سرد الوقائع، وتصوير مشاهد الحرب العنيفة التي خاضها بشات مع قلة قليلة من الثابتين، فكأنه يستدعي امرأته ليقول: هل من سامع لما سوف أقول؟!

هذا التقليد الشعري نجده عند عمرو بن كلثوم (ت نحو 20 ق هـ)، حيث قال:

أَلَا هَلْ أَتَى بِنْتَ الثُّوَيْرِ مَغَارُنَا عَلَى حَيِّ كَلْبٍ وَالضُّحَى لَمْ تَرَحَّلِ

ج- مشاعر المحبة والشوق بين الزوجين:

حين سافر هاشم بن عبد مناف إلى غزّة، سفرته الأخيرة التي اشتكى فيها ثم مات، اشتاق إلى سلمى بنت عمرو، زوجته الجديدة التي تركها حاملاً بعبد المطلب، ولم يُخفِ هاشم شوقه إليها، بل اتخذ أساليب الشعراء الذين يُرسلون أشواقهم وتحياتهم مع الرياح التي يستشقونها، فقال هاشم⁽²⁾:

(1) القصيدة رقم (8) من مجموع شعر العباس بن عبد المطلب، من هذا الكتاب.

(2) انظر القطعة رقم (1) من مجموع شعر هاشم، في هذا البحث.

فيا ليت شعري هل سُلِّمَى مُقِيمَةً تُعَالِجُ أَشْوَاقِي وَتَشْكُو لِعُرْبَتِي
فَوَاللَّهِ مَا قَدْ رُمْتُ فِي الْحُبِّ غَيْرَكُمْ وَلَا صَنَعَ الْعُدَّالُ فِيكَ بِسَلْوَتِي
وَأَسْتَنْشِقُ الْأَرْيَاحَ مِنْ نَحْوِ أَرْضِكُمْ لِأَنِّي غَرِيبٌ فِي الدِّيَارِ بِوَحْدَتِي

أَمَّا الْمَرْأَةُ فَقَدْ تَفْتَقِدُ زَوْجَهَا، وَتَوْصِي بِالرَّفْقِ بِهِ، وَتَدْعُو لَهُ، وَتَمْدَحُهُ، وَهُوَ مَا فَعَلْتَهُ
زَيْنَبُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حِينَ أُسِرَ زَوْجُهَا أَبُو الْعَاصِ بْنِ
الرَّبِيعِ، فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ، وَأُرْسِلَتْ فِي فِدَائِهِ، وَبَعِثَتْ كِتَابًا لِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،
وَمَعَهُ قِلَادَةٌ تَفْتَدِي بِهَا زَوْجَهَا، الَّذِي لَمْ يَكُنْ قَدْ أَسْلَمَ بَعْدَ، وَتَشْفَعُ لَهُ عِنْدَهُ. وَكَانَ كِتَابُهَا
نَشْرًا، خْتَمْتَهُ بِقَصِيدَتِهَا الَّتِي تَرْجُو فِيهَا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَغْفُوَ عَنْ زَوْجِهَا،
وَتَشْكُو إِلَيْهِ الْفِرَاقَ، أَوْ كَمَا قَالَتْ فِي نَهَايَةِ قَصِيدَتِهَا^(١):

فَجُدُّ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَنِّي تَكْرُمًا بِهِ لِي سَرِيعًا إِنَّهُ خَيْرُ صَاحِبٍ
فَجُودُكَ مَوْصُوفٌ وَفَضْلُكَ سَابِقٌ وَبِنْتُكَ فِي الْأَحْزَانِ يَا ذَا الْمَوَاهِبِ
وَبِنْتُكَ فِي الْأَحْزَانِ مِنْ أَجْلِ بَعْلِهَا وَفِي قَلْبِهَا مِنْ ذَاكَ لَدَعُ الْعَقَارِبِ
فِيَا رَبِّ لَا طَفْنِي بِإِسْلَامِ عَامِرٍ فَأَنْتَ الْمَرْجَى فِي جَمِيعِ النَّوَابِ
فَنِعْمَ الْفَتَى الْمَأْمُونُ وَالسَّيِّدُ الَّذِي يَغَارُ إِذَا هَبَّتْ رِيَاخُ الْجَنَائِبِ

فَفِكْرَةُ افْتِقَادِ زَوْجِهَا جَعَلَتْهَا تَحْسُ فِي قَلْبِهَا بِلَدَعِ الْعَقَارِبِ، إِنَّهُ افْتِقَادٌ شَدِيدٌ بَيْنَ
حَبِيبَيْنِ، فَقَدْ كَانَ هُوَ الْآخِرَ يُحِبُّهَا وَيَفْتَقِدُهَا فِي أَسْفَارِهِ، وَيَقُولُ فِي ذَلِكَ شِعْرًا، وَهُوَ هُنَا
الْفَتَى الْمَأْمُونُ الَّذِي تَمْتَدَحُهُ، فَإِنَّهُ كَانَ يُلَقَّبُ بِذَلِكَ عِنْدَ الْقُرَشِيِّينَ.

(١) انظر قصيدتها في مجموع شعرها في هذا البحث، والذي لم يضم غير قصيدة واحدة.

سادسًا - الحكمة

تتناثر الحكمة في أشعار كثير من شعراء بني هاشم. وقد أشار د. المعيني إلى وجود الحكم والأمثال في شعر عبد المطلب⁽¹⁾، كما في قوله⁽²⁾:

وَحَيْرٌ مَا يُفَعِّلُ الْفَتِيَانَ أَفْعُلُهُ وَإِنَّمَا يَتَّبِعُ الْإِنْسَانَ أَعْرَاقُهُ

وكما في قوله⁽³⁾:

أُنْحَى عَلَيْهِ وَلَمْ يَحْفَظْ لَهُ رَحِمًا مَا أَمْنَعَ الْمَرْءَ بَيْنَ الْعَمِّ وَالْحَالِ

ومن القصائد التي تتناثر فيها الحكمة قصيدة لحمزة بن عبد المطلب، يرثي بها علي حاسدي النبي محمد صلى الله عليه وسلم، فيقول⁽⁴⁾:

كَادُوا وَمَا خَافُوا عَوَاقِبَ كَيْدِهِمْ وَالْكَيْدُ مَرْجِعُهُ عَلَى مَنْ كَادَا

مَا كُلُّ مَنْ طَلَبَ السَّعَادَةَ نَالَهَا بِمَكِيدَةٍ أَوْ أَنْ يَرُومَ عِنَادَا

فلا شك أن بيتي حمزة من أبيات الحكمة، يحتجُّ بهما على موقف الكيد والعناد الذي وقفه حاسدو النبي صلى الله عليه وسلم، وهما يصلحان للاستشهاد بهما في أي موقف مماثل.

وفي شعر حمزة تتناثر الحكم والأمثال، كقوله: وبئس خلال الحرب حرب الأقارب - ولست أرى حيًّا لشيءٍ مُخَلَّدًا - ولست بلاقٍ صاحبِ الله أو حِدا - وللحين أسبابٌ مبينة الأمر - إن الخبيث إلى غدرٍ - وبعضُ العاذلات لها سبيلٌ - وذاتُ النصح مُشفقةٌ عذولٌ - كذاك الظلم مُتخِمٌ وبيلٌ - وللأيام دائلةٌ تدولُ.

(1) عبد المطلب بن هاشم شاعرًا، د. عبد الحميد المعيني ص37.

(2) القطعة رقم (48) من شعر عبد المطلب، جمع د. المعيني ص55.

(3) القطعة رقم (1) من شعر عبد المطلب، د. المعيني ص6.

(4) القطعة (3) من مجموع شعر حمزة بن عبد المطلب.

وكان أبو سفيان بن حربٍ قد أسلم، ثم لمَّا ترك الرسول صلى الله عليه وسلم، نَافَقَ ورأى أن يخرج مما هو فيه، وقال للعباس بن عبد المطلب: "يا أبا الفضل، متى تُطْلِقُنِي فقد صَجِرْتُ وضاقَتْ أنفاسي وأشْرَفْتُ على الهلاك وما أظُنُّ أنِّي أنجو مما أنا فيه أبدًا". وكان العباسُ يُريد تنفيذ أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، بأن يصطحب أبا سفيان وصحبه، ويُريه العَرَضَ العسكريَّ الهائل، وجيوش المسلمين مُزَيَّنة تسير قبائل، فقال العباس لأبي سفيان⁽¹⁾:

اصْبِرْ قَلِيلًا فَعُقْبِي صَبْرَكَ الْفَرَجُ وَلَا تَكُنْ عَجَلًا تَذْهَبُ بِكَ اللَّجَجُ

فقد أطلق العباسُ في هذا البيت حكمة، لَقَّنه بها درسًا في الصبر وعاقة العجلة. وقال العباسُ بنُ عبد المطلب في تغيُّر الأحوال وتفرُّق الخِلاَّن⁽²⁾:

إِذَا مَجَلِسُ الْأَنْصَارِ حُفَّ بِأَهْلِهِ وَفَارَقَهَا فِيهَا غِفَارٌ وَأَسْلَمَ
فَمَا النَّاسُ بِالنَّاسِ الَّذِينَ عَهَدْتُهُمْ وَلَا الدَّارُ بِالدَّارِ الَّتِي كُنْتُ أَعْلَمُ

وحين لا يجد أهل الجود ما يجودون به إلاَّ الشيء القليل، تبرُّز أهمية بيت جعفر بن أبي طالب، الذي ألقى فيه جعفرٌ بالحكمة، التي يتمثل بها من يقف موقفه هذا، فقد تبعه أبو هريرة ذات يوم، وهو جائع، فلما بلغ جعفرٌ باب منزله رأى أبا هريرة، الذي كان من مساكين أهل الصُّقَّة، فقال له: ادخُلْ، فدخل، ففكَّرَ حينًا فما وجدَ في بيته إلاَّ نَحِيًّا كان فيه سَمْنٌ مُرٌّ، فأنزله من رَفٍّ لهم، فشَقَّه بين أيديهم، فجَعَلَا يلعمقان ما كان فيه من السَّمْنِ والرُّبِّ (ثقله الأسود)، وهو يقول⁽³⁾:

مَا كَلَّفَ اللَّهُ نَفْسًا فَوْقَ طَاقِهَا وَلَا تَجُودُ يَدٌ إِلَّا بِمَا تَجِدُ

⁽¹⁾ القطعة رقم (3) من مجموع شعر العباس بن عبد المطلب.

⁽²⁾ القطعة رقم (17) من مجموع شعر العباس بن عبد المطلب.

⁽³⁾ القطعة رقم (2) من مجموع شعر جعفر بن أبي طالب. وقد أنقذ البحث هذا البيت، الذي أخذه الفقيمي وزاد عليه بيِّنًا آخر، فصار له، وقد ذكرْتُ ذلك في مبحث أثر شعر بني هاشم في شعر غيرهم.

ولا يكتمل الحديث هنا إلا بالإشارة إلى قصيدة الزبير بن عبد المطلب، التي ليس فيها إلا الحكم والأمثال، يقول في مطلعها⁽¹⁾:

إذا كنتَ في حاجةٍ مُرسِلاً فأرسلَ حَكيمًا ولا تُوصِه
وإنْ بابُ أمرٍ عليكِ التَّوى فشاورِ لبيبًا ولا تعصِه
وإنْ ناصحٍ منك يومًا دنا فلا تنأ عنه ولا تُقصِه
وذا الحقُّ لا تنقصَ حقُّه فإنَّ القطيعةَ في نقصِه

سابعًا- التبتل والدعاء:

وردت أراجيز كثيرة لعبد المطلب يتبتل فيها إلى الله بالدعاء له، أن ينقذ ابنه عبد الله من الذبح، كما وردت له أشعار وأراجيز كثيرة يتوجّه بها إلى الله ليحمي الكعبة من أصحاب الفيل الذين جاءوا للاعتداء عليها.

ومما ورد في المستدرک على شعر عبد المطلب، في هذا الكتاب، رجز قاله عبد المطلب بعد أن قدّم عشرة من الإبل فداءً لابنه عبد الله من الذبح، وأوقفها من وراء ابنه، وتعلّق بأستار الكعبة قائلاً:

يا رَبِّ جِئْ بِالْيُسْرِ بَعْدَ الْعُسْرِ
يا خالِقَ البرِّ كذاً والبَحْرِ
أُنقِذْ وِلدي مِنْ شِفَارِ التَّحْرِ
وخذْ فِداهُ مِنْ نِياقِ عَشْرِ

(1) شعر الزبير بن عبد المطلب، جمع د. المعيني ص 140.

ونلاحظ وجود الدعاء في شعر العباس بن عبد المطلب، ومن ذلك قوله بعد أن بنى دَارَهُ التي كانت إلى جوار مسجد النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة، فجعل يرتجز قائلاً⁽¹⁾:

بَنَيْتُهَا بِاللِّبْنِ وَالْحِجَارَةِ
وَالْخَشَبَاتُ فُوقَ مُطَارِهِ
يَا رَبِّ بَارِكْ أَهْلَ الدَّارَةِ

فقد أتمَّ العباسُ بناء داره، وهي مناسبة خاصة به، فوصف الدار الجديدة بأنها مبنية باللِّبْنِ، أي الطوب اللين، والحجارة، والخشباتُ فُوقَ - جمع فُوقة أو فُوق بمعنى السهم - فهي مُقطَّعة مثل الأسهم الساقطات التُّصول. وهي مُطَارَةٌ، أي أَنَّ الخشبات بِطَوَارِ الدَّارِ، أي متصلة بحائطها على نسق واحد. ويدعو الله أن يبارك في أهلها. ويروى بعد هذا الرجز: فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "اللهم باركن في أهل الدارة". وقد استجاب الله تعالى دعاء نبيه صلى الله عليه وسلم، فبارك في أهل دارة العباس بن عبد المطلب.

والدعاء كثيرٌ في الأراجيز التي قالها شعراء بني هاشم لأبنائهم. وللعباس رجز في ترفيض ابنه تَمَّام، فقد تَمَّ به أبنائه عشرة، فكان يحمله ويقول:

تَمُّوا بِتَمَّامٍ، فَصَارُوا عَشْرَةَ
يَا رَبِّ فَاجْعَلْهُمْ كِرَامًا بَرَرَةً
وَاجْعَلْ لَهُمْ ذِكْرًا وَأَنْمِ الثَّمَرَ

وقد تحقَّق دعاء العباس، فقد صار لأبنائه ذِكْرٌ، ولأحفاده دولة، سُمِّيت بالدولة العباسية، بل سُمِّي العصر الذي سادوا فيه طويلاً بالعصر العباسي.

(1) القطعة رقم (5) من مجموع شعر العباس، في هذا الكتاب.

ثامنًا - التهاني

احتفظت لنا بعض المصادر ببعض الأشعار التي قيلت في زفاف السيدة خديجة إلى النبي صلى الله عليه وسلم، حيث كانت أنظارُ بني هاشم وبعض البطون القرشية وغيرها تنجيه نحو الرسول صلى الله عليه وسلم، انتظارًا لمبعثه، لما يروون من بركاته صلى الله عليه وسلم، بل إنهم في هذا الزواج نفسه قد اكتشفوا أن ما حدث لسيدنا إبراهيم من إعادة زوجته سارة إلى سن الشباب، وما حدث لسيدنا يوسف حيث أعاد الله له زليخا في سن الشباب - وجدوا خديجة التي بلغت سنَّ الأربعين قد عادت شابة، إكرامًا لمن تتوالى عليه الكرامات والمعجزات الإلهية، فأخذت فرحة بني هاشم بهذا الزواج أبعادًا أخرى من الاستبشار، ومن السعادة التي يعيشونها باعتبارها حقيقة واقعة.

وقد سبقت الإشارة إلى بعض ما قيل في مدحه صلى الله عليه وسلم، في هذا الزواج، وأرجأت بعضه الآخر ليكون ضمن التهاني بهذه المناسبة الخاصة. ومما قيل في هذه المناسبة، قول عمته صفية، حيث أقبلت مع النساء، بالسيدة خديجة وهي بكامل زينتها، وهي بين يديها، تُقبِلُ بها على النبي صلى الله عليه وسلم، حتى أوقفها بين يديه، وكانت صفية تزفها إليه وتقول⁽¹⁾:

جَاءَ السُّرُورُ مَعَ الفَّرْحِ وَمَضَى التُّخُوسُ مَعَ التَّرْحِ
أَنْوَارُنَا قَدْ أَقْبَلَتْ وَالْحَالُ فِيهَا قَدْ نَجَحَ
بِمَحَمَّدِ الْمَذْكُورِ فِي كُلِّ الْمَفَاوِزِ وَالْبُطْحِ
لَوْ أَنَّ يُوَازَنَ أَحْمَدُ بِالْخَلْقِ كُلِّهِمْ رَجَحَ
وَلَقَدْ بَدَأَ مِنْ فَضْلِهِ لِقُرَيْشٍ أَمْرٌ قَدْ وَضَحَ
تَمَّ السُّرُورُ لِأَحْمَدٍ وَالسَّعْدُ عَنْهُ مَا بَرِحَ

ومن الملحوظ أنها أغنية تتغنى بها في هذه المناسبة السعيدة، وتذكر مناقبه التي صارت منتشرة في الآفاق، لكن أغاني الأفراح تتغنى بمناقب العروسين، فانقلت صفية إلى جمال خديجة وشمالها، فقالت:

(1) القصيدة رقم (7) من مجموع شعر صفية بنت عبد المطلب.

بِخَدِيجَةَ حُصِّ الْكَرِيمِ — وَمُ وَبَحْرُ نَائِلِهَا طَفَّحُ
يَا حُسْنَهَا فِي حَلِيهَا وَالْحِلْمُ مِنْهَا مُتَّضِحُ

وعادت تمدهح النبي صلي الله عليه وسلم، وتطلب من السامعين أن يصلوا عليه، فلا شك أنهم- بذلك- قد بدءوا يتعاملون معه على أنه نبي مثل الأنبياء السابقين الذين يصلون ويُسَلَّمُ عليهم⁽¹⁾:

هَذَا الْأَمِينُ مُحَمَّدٌ مَا فِي مَدَائِحِهِ كَلِّحُ
صَلُّوا عَلَيْهِ تَسْعِدُوا وَاللَّهُ عَنْكُمْ قَدْ صَفَّحُ

وكانت عمته البيضاء أم حكيم في هذا الزفاف، وفي مقطوعتها فضلت النبي صلي الله عليه وسلم على كل السابقين، فقد مشت بين يدي خديجة وهي تقول⁽²⁾:

جَنَحَتْ إِلَيْكَ مَطِيَّةُ الْأَمَالِ وَجَرَزَتْ فِيهِ فَوَاضِلَ الْأَذْيَالِ
وَبَلَغَتْ مَكْرَمَةً تَطَاوَلَ فَرْعُهَا زَادَتْ عَلَى الْهَضَبَاتِ وَالْأَجْبَالِ
وَلَقَدْ حُيِّتِ بِسَيِّدٍ مَا مِثْلُهُ فِيمَا مَضَى مِنْ سَالِفِ الْأَمْثَالِ
لقد كان أهله يفرحون لفرحه بهذا الزواج، كما كانت هذه مناسبة يتذاكر فيها بنو هاشم دلائل نبوته صلي الله عليه وسلم، ويُعبِّرون فيها عن بهجتهم بقرب مبعثه.

(1) تحفل الكتب المؤلفة في دلائل النبوة بالدلائل التي كان يعرفها القرشيون وغيرهم. كما كان أصحاب الديانات السابقة يعرفون الصلاة على الأنبياء. وفي الدر المنثور للسيوطي (ج5- ص406): "عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن بني إسرائيل قالوا لموسى عليه السلام: هل يصلي ربك؟ فناداه ربه: (يا موسى إن سألتك هل يصلي ربك فقل: نعم. أنا أصلي وملائكتي على أنبيائي ورسلي)".
(2) القطعة رقم (5) من مجموع شعر البيضاء أم حكيم، في هذا الكتاب.

تاسعاً - شعرُ الإِعدادِ التربوي

كثرت الأشعار والأراجيز التي كان يقولها الآباء والأمهاتُ لتزفين، أو تنفيذ، أو ترقيص أبنائهم. وكانت في بعض الأحيان موجَّهةً إليهم لأهداف تربوية حيث كانت تحمل آمال الآباء في الأبناء، فيظل الأبناء يحفظون مضمون هذا الشعر الذي قيل فيهم، كأنه منهاج حياة لهم. ويُلقَقُ بهذه الأشعار ما قاله الآباء والأمهاتُ لتعويد أبنائهم من كل شيء مخيف، والدعاء لهم.

وكتاب "الترقيص" للأزدي الذي كان يضم كثيراً من نصوص الترقيص، هو الآن في عداد المفقود من تراثنا العربي، لكن بعض المصادر احتفظت ببعض النصوص، ومنها ما قاله بنو هاشم لأبنائهم.

أ - التعويد:

في شعر عبد المطلب، الذي جمعه د. المعيني، نوعٌ من الأراجيز التي تَحْصُ الطفولة، لكنها للتعويد، حيث يُرَوَى أَنَّ عبد المطلب حمل حفيده النبيَّ محمداً صلى الله عليه وسلم، على عاتقه وطاف به حول الكعبة وهو يقول⁽¹⁾:

أَعِيذُهُ بِاللَّهِ بَارِيِ السَّمِ
مِنْ كُلِّ مَنْ يَسْعَى بِسَاقٍ وَقَدَمٍ
وَقَصْفَةِ الْحُجَّاجِ فِي الشَّهْرِ الْأَصَمِ
حَتَّى أَرَاهُ فِي ذُرَا صَعْبٍ أَشَمِ
ثُمَّ يَكُونُ رَبًّا غَيْرَ مُهْتَضَمِ

كما يُرَوَى له أنه حملة بعد ولادته، فأدخَلَهُ جوفَ الكعبة، وقام يدعو الله ويشكره على عطائه، قائلاً⁽²⁾:

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَعْطَانِي
هَذَا الْغُلَامَ الطَّيِّبَ الْأَزْدَانِ

(1) القطعة رقم (43) من شعر عبد المطلب بن هاشم، جمع د. المعيني ص50.

(2) القطعة رقم (39) من شعر عبد المطلب بن هاشم، جمع د. المعيني ص45.

قد سَادَ فِي الْمَهْدِ عَلَى الْغِلْمَانِ
أَعْيَدُهُ بِإِلَهِ ذِي الْأَرْكَانِ
حَتَّى يَكُونَ بَلَغَةَ الْفِتْيَانِ
حَتَّى أَرَاهُ بَالِغَ الْبُنْيَانِ
أَعْيَدُهُ مِنْ كُلِّ ذِي شَنَانِ
مِنْ حَاسِدٍ مَضْطَرِبِ الْعِنَانِ

فهذا الرجز الذي يُقال عند الكعبة على البديهة، كان يبتهل به عبد المطلب إلى الله أن يُعيدَ حفيده الذي بُشِّرَ به.

ب- الترقيص:

قد تكون الهدهدة- في حدّ ذاتها- أو الغناء أو الترقيص، مفيداً في النمو الوجداني للأطفال، أو لعله ينقل للأبناء حالة الحب والرفق التي يعيشها الأبوان تجاه أبنائهم. وهذه الطريقة من التعامل الوجداني مع الأطفال منتشرة في كل زمان ومكان. ومن نصوص الترقيص، التي تنقل عاطفة الحب إلى الأطفال، ما كان عبد المطلب يُرِقص به ابنه الحارث أو الزبير، فيقول⁽¹⁾:

يَا يَا يَا يَا يَا يَا
كَأَنَّهُ فِي الْعِزِّ قَيْسُ بِنِ عَدِي
فِي دَارِ قَيْسٍ يَنْتَدِي أَهْلُ النَّدِي

فهو يبثُّ أمانيه وآماله في أرجوزته لابنه وهو يهدده، حيث كان قيسُ بنُ عديٍّ من مشاهير رجال قريش، وكانت له دار يجتمع فيها الرجال للمشورات.

وقد جمع د. المعيني ثماني قطع شعرية من هذا النوع للزبير بن عبد المطلب، حيث كان يُدخِلُ عليه إخوته الصغار وبناته ويُجلِسُهم في حجره ويقول لهم هذه الأراجيز،

(1) القطعة رقم (5) من المستدرک علی شعر عبد المطلب، في هذا البحث.

ومنه ما يروى أنه دخل عليه النبي صلى الله عليه وسلم، وهو صغير، فأقعدته في حجره، وقال^(١):

مُحَمَّدٌ بَنُّنَ عَبْدَمِ
عِشَّتَ بَعِيثِ أَنْعَمِ
لَا زِلْتَ فِي عَيْشِ عَمِ
وَدَوْلَةٍ وَمَعْنَمِ
يُغْنِيكَ عَنْ كُلِّ عَمِ
فِي فَرْعِ عِزِّ أَسْنَمِ
مُكْرَمِ مُعْظَمِ
دَامَ سَجِيسَ الْأَزْلَمِ
وَعِشَّتَ حَتَّى تَهْرَمِ

وقال الزبيرُ في مدح ابنته أمِّ الحكم وتزفينها^(٢):

يَا حَبَّذَا أُمَّ الْحَكَمِ
كَأَنَّهَا رِيْمٌ أَحَمِ
يَا بَعْلَهَا مَاذَا يَشَمِ
سَاهَمَ فِيهَا فَسَاهَمِ

وعَلَّقَ د. عمر الدقاق، على ترقية الزبير لابنته، قائلاً: "هكذا تراءت الطفلة بين ذراعَيْ أبيها الزبير امرأةً نابهة، وزوجةً ذاتَ شأن، بعد أن صارت إلى كنفِ زوجها الكريم، وأنجبتَ وَلَدًا أثيرًا لوالديه اسمه الحكم، وأصبحت ابنته بعد ذلك تُكنى بأم الحكم. وهذا التَّرائِي أو النَّظَرُ المُسْتَقْبَلِيُّ للأب لِمَا سَيَكُونُ عَلَيْهِ شَأْنُ فَتَاتِهِ فِي قَابِلِ الْأَيَّامِ، ينم على عاطفة أبوية خالصة، وهو على بساطته يبدو مُحَبَّبًا إِلَى النَّفْسِ"^(٣).

(١) الأرجوزة في باب التزفين (الترقيص) في مجموع شعر الزبير بن عبد المطلب، د. المعيني ص150.

(٢) السابق ص153.

(٣) الترقيصات والترنيمات في أشعار الأمهات، د. عمر الدقاق، ص36.

وكانت فاطمة بنتُ أسد، تُرقص ابنها عقيلاً وهو صغير، فتقول⁽¹⁾:

إِنَّ عَقِيلًا كَأَسْمِهِ عَقِيلٌ
وَبَيْبِي الْمُلَقَّفُ الْمَحْمُولُ
أَنْتَ تَكُونُ السَّيِّدُ النَّيْلُ
إِذَا تَهَبُّ شَمَالٌ بَلِيلُ
يُعْطِي رِجَالَ الْحَيِّ أَوْ يُنِيلُ

فهي تتمنى لابنها أن يكون سيِّداً، وأن يكون معطاءً مُغيثاً لأهله، وهي من أهم القيم التي حملها جدُّها هاشمُ بنُ عبد مناف.

ويدعو العباسُ بنُ عبد المطلب لأبنائه العشرة بأن يكون لهم ذِكرٌ وأن تظهر عليهم النعمة، وهو يُرقص ابنه تَمَّامًا، ويقول⁽²⁾:

تَمُّمُوا بِتَمَّامٍ، فَصَارُوا عَشْرَهُ
يَا رَبِّ فَاجْعَلْهُمْ كِرَامًا بَرْرَهُ
وَاجْعَلْ لَهُمْ ذِكْرًا وَأَنْمِ الثَّمْرَهُ

وتُرقص صفيَّة بنتُ عبد المطلب حفيدتها عبد الله بن الزبير، فتتمنى له ألاَّ يبخل، وتصفه بالماجد، والفياض، والمؤمِّل، قائلة⁽³⁾:

إِنَّ ابْنِي الْأَصْغَرَ جَبُّ حَنْكَلٍ
أَخَافُ أَنْ يَعْصِيَنِي وَيَبْخَلَ
يَا رَبِّ أَمْتَعْنِي بِبِكْرِي الْأَوَّلِ
الْمَاجِدِ الْفَيَّاضِ وَالْمُؤَمَّلِ

(1) القطعة رقم (1) من مجموع شعر فاطمة بنت أسد.

(2) القطعة رقم (6) من مجموع شعر العباس بن عبد المطلب.

(3) القطعة رقم (18) من شعر صفيَّة بنت عبد المطلب.

فهي تذكر بعض صفاته الجسمانية وهو صغير، فهو جَبٌّ، أي منتفخ، وهو حَنْكَلٌ، أي قصير. وهي صفاتٌ مُضحكة ورقيقة في نفس الوقت، لأنها تصف طفلاً صغيراً لم تتضح معالم صورته بعد.

ج- التأديب:

مقصودٌ بالتأديب التنشئة على مبادئ خاصة، أو اعتناق قيم معينة، أو تحقيقُ آمال الآباء في أبنائهم، وقد ورد في شعر الزبير بن عبد المطلب، أراجيزٌ محمَّلةٌ بالقيم، فهو حين أفعَدَ أخاه العَبَّاسَ في حجره قال له⁽¹⁾:

إِنَّ أَخِي الْعَبَّاسَ عَفْتُ دُو كَرَمٍ
فِيهِ عَنِ الْعَوْرَاءِ إِنْ قِيلَتْ صَمَمٌ
يَرْتَاخُ لِلْمَجْدِ وَيُوفِي بِالذَّمِّ
وَيَنْحَرُ الْكُوسَاءَ فِي الْيَوْمِ الشَّيْمِ
أَكْرِمُ بِأَعْرَاقِكَ مِنْ خَالٍ وَعَمِّ

فالزبير يمدح أخاه باعتبار ما سيكون، فهو لا يستمع إلى ما تُصدره الأخلاق الرديئة من أقوال، ويوفي بالذمم، وفي أيام البرد والجوع يُعرقب الناقة وينحرها.

وقد كانت صفة بنت عبد المطلب تُنشئُ ابنها الزبير بن العوّام، على أن يكون من المحاربين العظماء، بما لهم من صفات القوة والشجاعة والذكاء والمهارة، والدفاع عن الحقيقة، فهي تقول أرجوزة لتكون له منهاجاً يسير عليه⁽²⁾:

وَأَيِّكَ مَا زَبْرٌ بِنِكْسٍ أَحْمَقُ
لِكِنَّهُ صَقْرٌ كَرِيمٌ مُعْرَقُ
حَامِي الْحَقِيقِ مَا جِدُّ دُو مَصْدَقُ
وَيَضْرِبُ الْكَبْشَ سَوَاءَ الْمَفْرَقُ

(1) شعر الزبير بن عبد المطلب، جمع د. المعيني ص151.

(2) القطعة رقم (17) من مجموع شعر صفة بنت عبد المطلب.

وَلَيْسَ بِالْوَانِي وَلَا بِالْأُخْرَقِ

فهو غير نكس، أي غير ضعيف، لكنه صقر، وله عزق في الكرم، وهو سمح كريم معطاء، وشجاع مقدم يضرب الكيش، في وسط رأسه، وكيش القوم حاميتهم، وكيش الكتيبة قائدها. وليس بالواني، أي الضعيف البدن، وليس بالأخرق، أي الأحمق الجاهل بما يجب أن يفعله. وكل هذه من صفات مشاهير المحاربين الأقوياء، وكانت صفات المحاربين من أهم الصفات التي يتمناها الأهل في أبنائهم. وأي أم تلك التي تُربِّي أبنائها عن طريق الفنِّ الشعري، مثل صفية بنت عبد المطلب، فقد كان السائب بن العوام، وهو أخو الزبير بن العوام، قد سبها وهو صغير، فقالت له أمه صفية⁽¹⁾:

يَسُبُّنِي السَّائِبُ مِنْ خَلْفِ الْجُدُرِ
لَكِنْ أَبُو الطَّاهِرِ رَبَّارٌ أَمْرُ
مُبَدَّرٌ لِمَالِهِ بَرٌّ غَفْرُ

وها هي البيضاء أم حكيم بنت عبد المطلب، تُزفُّ ابن ابنتها عثمان بن عفان، وهو صغير، فتضع له بأرجوزتها منهاجاً أو نموذجاً يسير عليه، قائلة⁽²⁾:

ظَنِّي بِهِ صِدْقٌ وَبِرٌ
يَأْمُرُهُ وَيَأْتِمُرُ
مِنْ فِتْيَةٍ بِيضٍ صُبْرُ
يَحْمُونَ عَوْرَاتِ الدُّبُرِ
وَيَضْرِبُ الْكَبْشَ النَّعْرُ
يَضْرِبُهُ حَسْبِي يَخْرُ
مِنْ سُورٍ وَمِنْ أُخْرُ
بِكُلِّ مَصْقُولٍ هَبْرُ

(1) القطعة رقم (11) من مجموع شعر صفية بنت عبد المطلب.

(2) القطعة رقم (2) من مجموع شعر البيضاء أم حكيم بنت عبد المطلب، في هذا الكتاب.

فالنموذج المطلوب هو أن يكون صادقاً باراً، وأن يتخلق بأخلاق الفرسان الذين يحمون أهليهم وعوراتهم، ويضرب المحاربين الشجعان الذين يصيحون في الحروب، فلا يخافهم، بل يقطع رقابهم من أمام ومن خلف، بسيف قاطع.

لقد بات واضحاً أن أخلاق المحاربين هي المثل الأعلى في المجتمع القرشي، مضافة إلى الأخلاق العامة والقيم الإنسانية الأصيلة، فتمنى الأمهاتُ والجداتُ لأبنائهن وأحفادهن أن يجمعوا بين كل القيم.